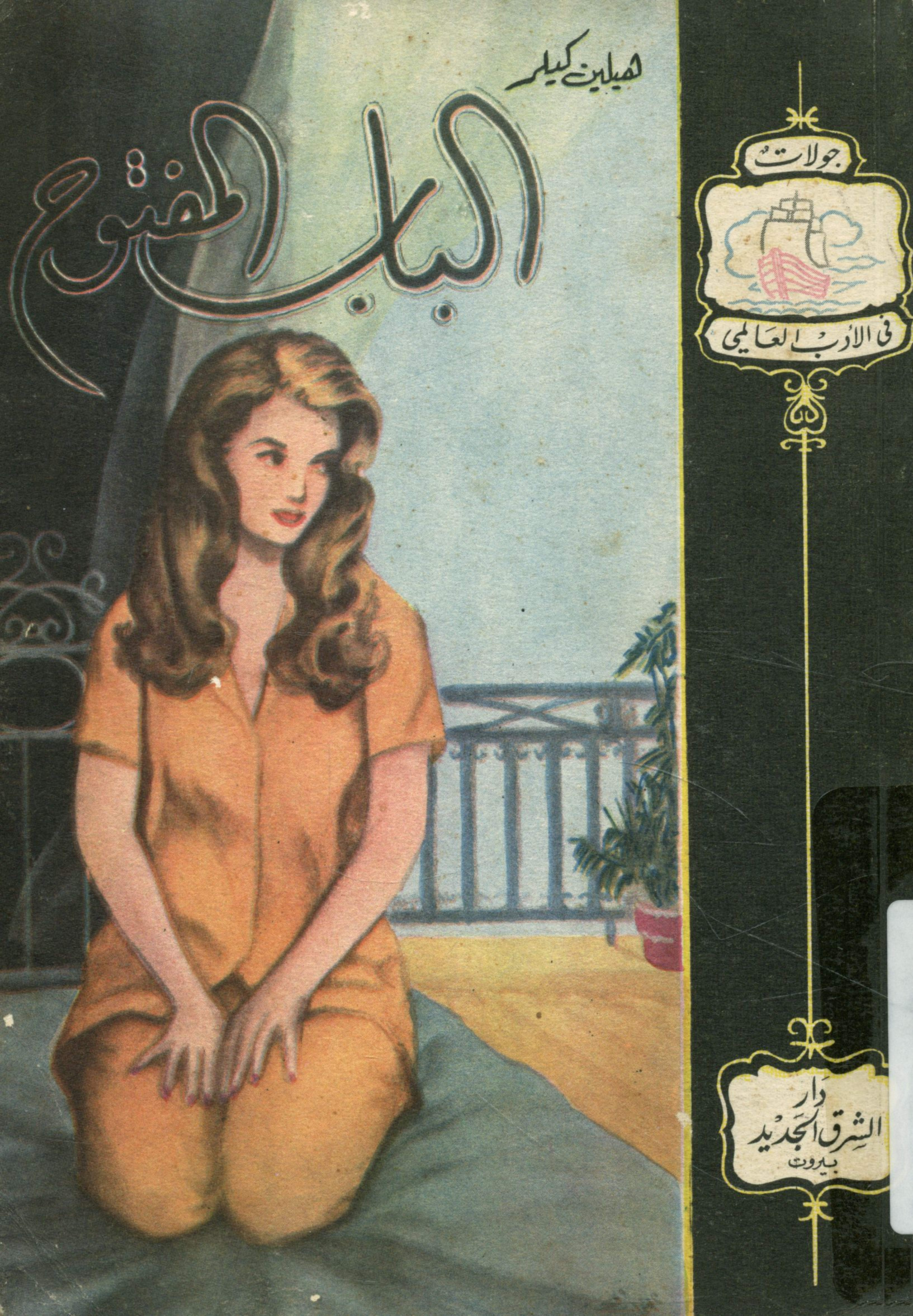
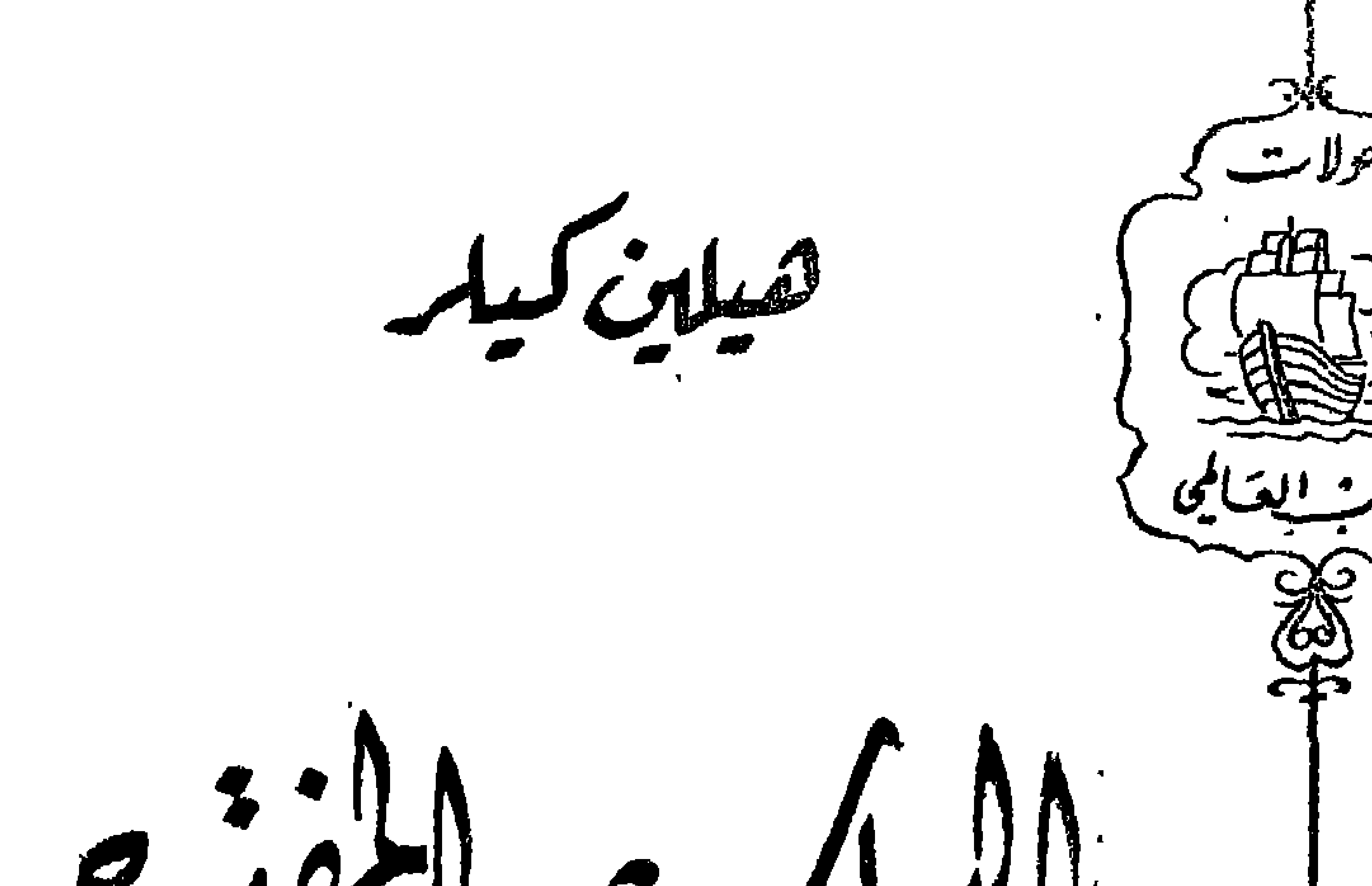

هيلين كيلر
الباب المفتوح
جولات
في الأدب العالمي
دار
الشرق الجديد
بيروت

الباب المفتوح



هيلين كيلر

الباب المفتوح

نقلها الى العربية
لجنة الترجمة في دار الشرق الجديد



١٦

The Open Door

By

Helen Keller

Daubleday & Company, INC.

New York 1957

اهداء

اهدي هذا الكتاب الى آن سوليفان ماكي
بمحبة تعرف ان حياتي تنفست
بحرية بسببها وعلى يدها .

كلما اغلق باب للسعادة فتح باب آخر ، ولكننا ننسى لكثرة ما ننظر الى الباب المغلق ، الباب الذي فتح ...

لقد تطلعت الى قلب الظلام وأبيت الاستسلام الى تأثيره المشل ، وبقيت بروحي احد أولئك الذين يسيرون في فجر الصباح ...

ترى ماذا يحدث لو تجمعت في طريقي جميع احوال العقل البشري الحزينة وتراكمت امامي كاوراق اشجار الخريف ؟ لقد وطئت هذا الممر أقدام سبقتني فعرفت أن الصحارى تقود الى الله كما تقود اليه المروج الخضر والحقول المنعشة والحدائق المثقلة بالأثمار. لقد أهنت انا ايضاً وتحققت من ضآلتي في خضم الخليقة ، فكلما ازددت معرفة نقص ايماني بأنني اعرف ، وكلما ازدادت تجاربي الحية ازداد معها يقيني بحقارتها ونقائصها وعدم لياقتها لان تؤخذ قاعدة في الحياة ...

اذا لم يكن هناك حياة اخرى خلف ما بعد هـــذه الحياة الارضية فان كثيراً ممن اعرف سيخلدون بذكرياتنا عنهم . ومع كل صديق احببت وفارق هذه الحياة وواروه التراب جزء مني دفن معه هناك . ولكن ما تركوه لي من سعادة وقوة وتشجيع وفهم لحياتي سيبقى زادي الذي استقي منه الحياة في عالم متقلب غدار ...

أنا أؤمن يقيناً ان الله قد وهبنا السعادة لا الشقاء ، وأؤمن ايضاً أن الكثير من السعادة لن يحوّل هذه الدنيا الى عالم كسول خامل لا يميّز . فان طبيعة الكون تتمخض دوماً عن الالم والفشل والفراق والموت. ويزداد وقع هذه الامور ألماً ومشقة عـــلى النفس كلما ازدادت اختبارات المدنية الحديثة تعقيداً وأخذت شكلاً أخطر مما هي عليه الان . وبهذا تبقى المهمة الدقيقة التي حبانا بها الله وهي الفرح مهمتنا نحن . فعلينا ان نخلفها لأطفالنا . فكم من الناس يخطئون في فكرتهم عن السعادة فهي لن تنال بطريق ارضاء الذات واشباع نهمها بل بطريق السعي وراء هدف عال قيم . فليست السعادة غاية بحدّ ذاتها بل هي وسيلة لأنجاز المهمات الجسام ، كالصحة تمامـــاً : ولكل انسان حقوق اساسية تجعل السعادة ممكنة اذا حفظت هذه الحقوق: حق الانسان بأن يحيا حياته عـــلى المدى وفي العمق الذي يريد ، وحريته بان يختـــار عقيدته وان يطور امكانياته ولكن ليس من حق احدنا ان يستهلك سعادته دون ان ينتج شيئاً منها ، أو ان يلقي بثقله ويحمله عـــلى الآخرين لمجرد إشباع رغباته الخاصة .

لا شك بان على كل فرد منا ان يخصص بعضاً من وقته لنوع من المرح ، ولو كان ذلك خمس دقـائق في اليوم يمتع فيها نظره بزهرة جميلة أو غيمة عابرة أو نجم يلمع ، أو أن يقرأ الشعر أو يساعد آخر على انجاز مهمة ما .

فما فائدة هذا الجد المخيف الذي يستنفد البعض حياتهم فيه فيؤجلون باستمرار تبادل الابتسام مـــع « الجمال » و« السرور » ملتصقين بالواجبات المتعبة والعلاقات المنهكة؟ فاذا لم يسمحوا للذة الكائنات المنعشة الجميلة بالدخول الى حياتهم والولوج الى قلوبهم فانهم يكونون كمن يغلق أبواب السماء دون نفسه تاركاً الغبار الأصفر يخيم على الوجود . فلا معنى لعبارة « السماء اكثر بهجة من الارض » الا اذا فهمنا قيمة الارض وتمتعنا بها . ان تذوق جمالهـــا اولاً يمنحنا حق التطلع نحو اشعاع الشروق ولمعان النجوم .

يستطيع الايمان البسيط كأيمان الطفل البريء بصديق سماوي ، ان يحل كل المشاكل التي تأتينا من البر والبحر. فالمصاعب تواجهنا من كل زاوية لانها رفيقة الحياة ونتيجة مزيج من شخصياتنا وسخافاتنا . وآمن طريق لمواجهة المصاعب هي ان نفترض باننا زائلون وان لنا صديقاً لا « تأخذه سنة ولا نوم » يحرسنا ويرشدنا — لو اننا فقط ندعه يفعل ذلك — . فاذا انزلنا هذا الايمان في اعماق نفوسنا لاستطعنا اذن ان نفعل كل ما نرغب عمله وان نزيل الحدود من حول ما نفكر به ، ولأصبح بامكاننا ان نغرف من جمال الكون ما تشاء قدرتنا اغترافه . لكل اذية ترضية من الوصف الدقيق . ومن اشواك الالم تنبت زنابق الصبر الجميل ، والنار المقدسة التي لامست شفاه النبي « اشعيا » فأضاءت الروح وشعور الرضى الذي يصاحب بزوغ نجمة المساء . وتفقد ثروة التجارب الانسانية شيئاً من الفرح المنعش لولا وجود الصعوبات التي يجب تخطيها .

التسامح أعلى مراتب الثقافة ؛ منذ زمن بعيد حارب الكثيرون ومضوا صرعى في سبيل الدفاع عن ايمانهم ولكن الانسان ليحتاج الى العديد من القرون لكي يتعلم النـوع الاخر من الشجاعة :.. شجاعة الاعتراف بحق أديـان الاخرين وعقائدهم وحريتهم بالتمتع بحـق ضميرهم : والتسامح أول مبدأ من مبادىء الجماعة : فهو الروح التي تحفظ اجمل ما ابتدع الانسان واروع افكاره : فـلا خسائر الفيضانات والصواعق ولا تخريب المدن والمعابد نجحت في القضاء على حياة وعلى دوافـع رفيعة كما استطاعت انسانية الانسان وعدم تسامحه ان تكبده من خسائر .

وكثيراً ما ترسم أمامي نظرة التشاؤم ونظرة التفاؤل في توازن ماهر فأشعر بالضياع لولا قوة الروح التي تعينني على التمسك بفلسفة عملية حية ، هي الحيـــاة ، وهكذا استعمل ارادتي فأختار الحياة وارفض نقيضها ... لأنه هباء ...

ان الامن خرافة. ليس لها وجود في الطبيعة ولا يشعر به أطفال الرجال . ان الله نفسه لا يشعر بالأمن بعد ان أعطى الانسان ساطة امتحان اعماله . وليس تجنب المخاطر بأكثر أمن من مواجهتها وجهاً لوجه ، فكثيراً ما يسقط الجبناء صرعى كما يسقط الشجعان ، وليس هناك من حام سوى الايمان . والحياة اما مغامرة أو لا شيء . فلنشمخ برؤوسنا في وجه التطور وننصرف كأرواح حرة طليقة في وجه القدر ... لأن هــذه هي القوة التي لا تقهر . وأخشى ان نكون قد سببنا لجيلنا ضرراً كبيراً لتركيزنا الفكرة في عقولهم بأن بالامكان العيش بأمان في نظـام دائم للأمور لا يتغير ، فقد أضعفت هذه الفكرة فيهم خصب الخيـال وجردتهم من سلاح الشخصية وجعلتهم عاجزين عن قيـادة مصائرهم ، فباتوا وقد دوختهم الاحداث والافكار المضللة ، فقد توقعوا الاستقرار في العالم وليس في نفوسهم أو في العالم شيء منه . فعليهم ان يعلموا قبل فوات الأوان وان يشعروا الآخرين بأنهم لن ينهضوا الى ذروة الشعور بالمسؤولية إلا اذا قبلوا بشجاعة حقيقية ان « الحياة تغيير دائم وأزمات مستمرة » .

أنا أكثر سعادة في هذه الحياة من أن أطيل التفكير في الآخرة ، الا لكي أذكر بان لى اصدقاء أحباء ينتظرونني هناك ... في مكان ما جميل ... عند الله . ورغم مضي السنين فانني أشعر بهم قريبين مني الى حد انني لن استغرب اذا قاموا فجأة وفي أية لحظة بالضغط برفق على يدي واسمعوني كلمات الحنان كما كانوا يفعلون قبل رحيلهم .

من المدهش أن نرى كثرة ما كَتَبَ وتحدث الرجال عن التجديد وقلة ما قالوا عن الغاية منه . فقـــد ادعوا وأعلنوا ان تثقيف النفس يكفي بالنسبة لجميع مثلنا العليا في الكمال . ولكن اذا أصغينا لأعظم الرجـــال والنساء لسمعنا جوابهم يهدر بالنفي . وقد اختزن بعضهم كنوزاً هائلة من المعرفة ، ولسوف يقولون ان العلم قـــد يكون وجد الدواء الشافي لمعظم الشرور الانسانية . ولكنه حتماً لم يجد بعد العلاج لاسوأ تلك الشرور اطلاقاً وهو ضعف الاحساس عند بني البشر .

ابسط راحتك لتتحسس روعة دفء أشعة الشمس ، واضغط براعم الازهار الناعمة على وجنتك ثم تحسس باناملك بديع تركيبها وطراوة شكلها ونعومة نضارتها .

إرفع رأسك وعرض وجهك لطوفان النسيم الذي يجتاح السماء ثم استنشق الابعاد الواسعة من الفضاء ؛ وتعجب .. تعجب من نشاط الريح الذي لا يمل ، واجمع نغمات الموسيقى اللانهائية التي تهب موجة وراء موجة لتلج الى روحك من اختلاط حفيف آلاف الاغصان وخرير مساقط المياه . فكيف يمكن ان تجعد الارض وجهها وتقطب حاجبيها ، بينما حاسة اللمس العاطفية العظيمة ما زالت أمينة لمهمتها ؟!

اني أؤكد ، اني لو جاءتني جنية وخيرتني بين حاسة النظر وحاسة اللمس ، لما استطعت حتماً مجرد التفكير بالتنازل عن الدفء والحب الذي اشعر به لدى ملامستي اليد الانسانية أو الحركة الهائلة والغنى الكامل الذي يضغط في راحتي »

أنا اعلم ما هو الشر . فقد سبق وصارعته وشعرت مرة أو اثنتين بلفحاته الباردة تلامس حياتي . لذلك أتحدث حديث العارف حينما أقول ان ليس للشر أهمية الا كصراع فكري (وليس تفاؤلي المطلق سوى نتيجة هذا الصراع) وعن اقتناع أقول : ان ذلك التلاحم الذي يحتمه الشر لمن أعظم البركات فانه يقوّي من عزائمنا ويسكب الصبر في نفوسنا ويبذر في أنفسنا رجالاً ونساء روح التعاون . ويحملنا الى جوهر الاشياء ويعلمنا ان الدنيا لكثرة ما فيها من آلام وقسوة مليئة بأساليب التغلب على تلك المصاعب . فتفاؤلي اذاً لا يقوم على فكرة انتفاء الشر بل على ايمـــان بهيج برجحان كفة الخير ، ورغبـــة صادقة للتعاون مع ذلك الخير لكي ينتشر ويسود . أحاول دوماً ان أزيد من تلك القوة التي وهبنيها الله لأرى الناحية الأحسن في كل الأشياء وكل الناس ، واجعل ذلك الأحسن جزءاً من حياتي . وبالرغم من ان العالم مزروع ببذور الخير فلن استطيع ان أحصد بذرة خير واحـــدة إلا اذا حولت افكاري السعيدة نحو حياة عملية وحرثت حقل حياتي الخاص بنفسي .

ان أي انسان تدفعه طيبة قلبه الى لفظ كلمة طيبة او إبداء ابتسامة مشرقة أو تذليل صعاب تعترض طريق انسان آخر يعلم ان المتعة التي يشعر بها هي جزء من صميم نفسه يحيا بها . وهل هناك من متعة تجاري متعة اجتياز العوائق التي بدت قبل لا تخترق ، ثم الانطلاق الى ما وراء حدودها ؟

لو توقف الباحثون عن السعادة للحظة خاطفة وفكروا لرأوا الممرات التي تمر عليهم في تجاربهم الحقيقية كثيرة كالعشب المتكسر تحت اقدامهم او كقطرات الندى المتهالكة في أحضان الأزاهير ...

عندما أشرقت شمس الوعي علي لأول مرة كان ذلك معجزة ! فان زهرة حياتي الصغيرة التي اضمحلت عادت ونمت ثم ترعرعت في مياه المعرفة وأعطت البراعم واحلوت من جديد مع أزهار الطفولة .

وهناك ... من اعماق كياني انطلقت اصرخ: « ما اجمل الحياة » ، ومددت يدي المرتعشتين نحو الحياة ، وعبثاً حاول السكون ان يفرض علي الصمت : وكان العالم الذي استيقظت عليه ما يزال غامضاً ولكن فيه الأمل والحب والله، فلم يعد يهمني شيء آخر ..

أليس من الممكن ان يكون دخـــول الجنة تجربة كتجربتي هذه ؟!

نتساءل عندما تستنضب خيبة الامل صبرنا تُرى لماذا تعترض العقبات المفزعة سبيلنا ؟ ونعجب احياناً ، لمَ لا تسير سفينتنا بهدوء وطمأنينة بدلاً من ان تجبر دوماً على مصارعة الرياح العاتية والبحار المضطرمة ؟ لا شك بان السبب يعود الى ان سجايانا لا تكتمل بسهولة وهدوء. فقط ، من خلال تجارب المحن والعذاب يمكن للروح ان تقوى وللرؤيا ان تنضج وللطموح ان ينبعث وللنجاح ان يتحقق. فاغلب الرجال والنساء ممن خلدهم التاريخ بسبب خدماتهم للأنسانية كانوا يتمتعون بالقدرة على استغلال المصائب . وما انتصروا الا لرفضهم الهزيمة امام الصعاب أو المعارضة. فقد حركت هذه العقبات قواهم الدفينة وشحذت فيهم العزم الذي حملهم الى ابعد من اي هدف كان يمكن ان يصلوا اليه لولا ذلك

سيبقى ركام هذا العالم المريض المتهدم يعرقل خطانا لسنين طويلة قادمة . نحن بحاجة الى هدف أسمى من أي إنسان فرد وخليق بالانسانية كلها ليهدىء اعصابنا ويعيد الى نفوسنا الروح . فالمجتمع العاقل الذي ثروته اطفال سعداء ورجال ونساء ينبضون بالنشاط الخلاق الجميل لن يُقَدَّم الينا على صحن من الفضة . بل علينا ان نخلقه بانفسنا . فمصيرنا بيدنا وتقع مسؤوليته على عواتقنا ، ولن نستطيع مواجهة هذا المصير ولا تخطيطه بدون الايمان .

لقد قيل لنا طويلاً وكثيراً ان الايمان شيء غير عملي وان علينا ان نخفض اشرعتنا لكل ريح تهب .. اما الآن فيشتعل في نفوسنا شعور الصدق بان اللامبالاة والحلول الوسط هي الفوضى بعينها .

عندما كنت فتــاة يانعة في الكلية كتبت اصف عقيدتي :

« أؤمن بالله وأؤمن بالانسان وأؤمن بقوة الروح وأؤمن بأن تشجيع انفسنا والآخرين واجب مقدس ، كما أؤمن بضرورة كبح اللسان عن التلفظ باية كلمة قبيحة ضد دنيا الله ، فليس من حق احد ان يعق عالمـاً خلقه الله حسناً وجاهد آلاف الرجال من اجل ابقائه حسناً جميلاً . »

لقد انقضت سنوات طوال على كتابتي هذه ، ذقت خلالها الكثير من الآلام ، وتعرضت للمصائب ولكنني لم ابدل رأيي . فاي انسان يؤمن بالله وبالانسان وبالروح هو في عقيدتي متفائل يعرف ، مهما اصابه ، بان الخير هو القوة السائدة في الكون ويشعر بها تحتضنه كما يحتضنه ويلتف حوله حب الله ...

اي عزاء هناك لانسان مثلي حرمه القدر الزوج وبهجة الامومة ؟! في هذه اللحظة تبدو وحدتي قاتلة وثقيلة ، ولكن لحسن الحظ لدي من الاعمال الكثيرة ما يشغلني ، بالاضافة الى انني اشعر اثناء قيامي بواجبي ، وكما اشعر دائماً ، بان رغبـــاتي التي لم تتحقق اليوم ستتحقق حتماً وبمجد في عالم آخر حيث لا تعتم عيون ، او تكسل آذان.

نحن نجلب آلاماً لا حدّ لها حينما نبالغ بشعورنا بمصائبنا الخاصة :

لماذا يجب ان نستثني انفسنا من عصا التربية التي يمر جميع الناس تحتها ؟ فبدلاً من ان نقارن بين ما يصيبنا وما يصيب المحظيين منا ، يجب ان نتطلع الى الاكثرية البشرية فنتأكد من اننا من بين المحظوظين ...

بينما تربك الانانية والشكوى العقل وتحيطانه بالغيوم يُجلي الحب بمسراته الرؤية ويمنـــح النعومة للبصيرة فنرى العجب فيما كنا لا نرى فيه سوى الغباء والسخف. وهو الذي يفجر ينابيـع الألهام ، ومسراته ويرسل نهراً من دم الحياة في قوانا الملتفة بعباءة المادة .

ان الحرية التي لا تقترن بالايمان ، ليست حرية كاملة وانما هي حرية نصف ميتة ! لم يكن لدى الامير كيين مقدار كاف من الايمان بأنفسهم ليطالبوا بالمساهمة ، بل الاشتراك في انماء جهاز الحكومة. اذ قلما فكروا في اختيار رجال سياسيين اكفاء يمثلون مصالحهم بأمانة واخلاص. وقد القوا المسؤوليات الملقاة على عاتقهم جانباً ، وتركوا الايمان ، والمودة ، والقوة الاتحادية الى المبشرين « ذوي الاحلام » في الوقت الذي كان يجب ان يعملوا على نشر هذه الأمور بين افراد المجتمع كافة ...

عندما خبرت ما يقاسيه الرجال وما يحملون من اعباء، لمست كما لم ألمس من قبل قوة الحياة الدافقة التي هزمت جحافل الظلام ، تلك القوة التي، وان لم تفز نهائياً بعد، ما زالت تقهر وتحقق النصر تلو النصر . وما دمنا نرفع لواء الصراع ضد قوى الدمار فالمعركة تسير لخير البشرية!

ولقد برهن قلب العالم العظيم انه ندّ للمهام الجسام التي القاها الله على كاهلنا .

وقلب الانسان ، الباقي رغم الصدمات ، المؤمن رغم التأنيب الذاتي ، الشامخ ، البطل لا زال ينطلق الى هدف بعيد ... غــير محدود .. ورغم الصعاب التي يعانيها من الخارج وعذاب الدهور العتيقة ينصت القلب الى صوت غامض يهمس في اعماقه : « لا تيأسوا فالمستقبل يحمل جنة الميعاد » .

نسمع من كل صوب وحدب دعوة للعودة الى الدين تحمل رنة الاخلاص في طياتها : ولكن أليس من المربك حقاً القول « بالعودة الى الدين » بينما ينادي الدين « بالعودة الى الايمان » ؟

الدين ثمرة الايمان فطلب العودة الى الدين دون الايمان كالمطالبة بالزهرة دون البذرة . لقد قامت أديسان كثيرة ببعث الأمل على الارض ولكن ديناً واحداً ظل دائماً الجذع الذي تفرعت عنه ، تماماً كالنية الحسنة التي هي أصـــل جميـع أعمال الخير . لقد خطر ببالي ان الدين ربما كان يأس الانسان في بحثه عن الله بينما الإيمان هو الأمل ـ بحث الله عن الانسان ...

في كل يوم اضع ثقتي التي لا حد لها في اصدقائي ذوي العيـون والآذان ، فيقولون لي كم من مرة خدعتهم حواسهم وحادت بهم عن الطريق السوي . ومع هذا فانا أجمع منهم العديد العديد من الحقائق البسيطة التي أبني بها عالمي الخاص ، وبها استطاعت نفسي تصور جمال السماء وتحسس أغاريد الطيور . وقد يحيط بـي من كل صوب السكون المطبق والظلام ، ولكن ... في داخــلي ... في روحي ... تضطرم الموسيقى وتشع البهجة وتلتمع الالوان بين افكاري ...

في يد العالم أعظم وأنبل مهمة : مهمة إخضاع كافة قوى الطبيعة لعقل الانسان والقوى المادية لسلطان الروح . ولكننا ما زلنا بعيدين جداً عن تحقيق هذا الأمر ، عن أرفع انتصارات اليد .

فقوى العالم بحاجة الى مزيد من التنظيم والانضباط ، واعضاء المعمورة يجب أن يعاد بناؤها وان تتحرر : ولكي لا يتعذب أحدها ، أو يستعبد فردٌ منها أفراداً آخرين ، على ان ارادة الاكثرية ان تتحد بذكاء وان تعي نفسها . عندها فقط تنطلق اليد - قوة الرجل الحية ، وهادمة الدنيا - لتضع نفسها على الآلة التي طال انحباسها عنها .. فيعم الخير الجميع ولا ترتفع يد صارخة ضد يد الله !؛ ثم تحقق ما ترمز اليه الآن بغموض - رفع مستوى الجنس البشري وتجديد قواه وكل ما هو رفيع وخلاّق في الانسان .

من المحزن ان الحياة عاملتني بقسوة ، ولطالما شكوت في قلبي حرماني من كثير من ملذات التجارب الانسانية ولكنني عندما أتذكر كنز الصداقة الـــذي ُمنحته أسحب كل شكاواي ضد الحياة . فاذا كنت قد حرمت الكثير فقد أعطيت الكثير ، الكثير جداً . وما بقيت ذكرى بعض الاصدقاء الاحباء تعيش في قلبي فسأبقى أقول ... ما أطيب الحياة .

انني اثق ولن يعكر ثقتي أيّ شيء . انني أعــترف بوجود القوة العليا التي نعبدها جميعاً — النظام ، القــدر الروح الأعظم ، الطبيعة ، الله ! فأنا أتعرف على هــذه القوة في الشمس التي تبعث الحيــاة في كل شيء وتنمي كل شيء . انني أتودد الى هذه القوة التي لا توصف ولا تـُعـَرّف فأشعر بالسرور والشجاعة والاستعداد لتلبية أي امر تقرره لي السماء . هذا هو ديني في التفاؤل .

والآن أراني مدججة بالسلاح ضـــد الفقر والمؤثرات المهينة كأي انسان آخر ولكنني اؤمن أن التجارب الانسانية تعلمنا اننا اذا لم نستطع النجاح حيث نكون فلن ننجح في أي مكان آخر .

اننا سنبقى ضعافاً هزيلي الاخـلاق في أي مركز نتبوأه ما لم نشمخ كالزنبقة بقوة وطهارة فوق ما يحيط بنا من فساد . فاذا لم نستطع خدمة العالم حيث نحن فلن نستطيع خدمته في أي مكان آخر .

فالأمر الاهم ، ليس البيئة التي نعيش فيها بـل نوع الافكار التي نفكر بها كل يوم والمثـــل العليا التي نسعى لتحقيقها . وبكلام آخر ــ النوع الذي نحن منه بين الرجال والنساء . ما أصدق المثل العربي اذ يقول : « هذه دنياك التي وجدت نفسك فيها » .

ان قوة الروح لاكثر مدعاة للدهشة من عجائب الطبيعة فبدلاً من تبني الافكار العقيمة والاقوال التقليدية عن العالم الآخر ، لمَ لا نركب أجنحة الخيال ونعبر غير آبهين شواسع عوالم المجهول الى مباهج الدفء الانساني — الرباني الذي هو السماء .

انا احب بلادي ، ولكن هذا يشبـــه قولي بأني احب عائلتي ، فأنا لم اختر بلادي كما لم اختر والديّ ، ولكنني ابنة بلادي تماماً كما انني طفلة أمي وأبي الجنوبيين . لقد خلقت مني بلادي ما انا عليه الآن ، فهي التي شجعت الروح التي سهلت أمر تثقيفي . فلم يسبق لليونان أو لروما أو للصين كلها أو لألمانيا أو لبريطانيا العظمى ان أحاطت بطفل ضرير – أطرش بالحنـان والصبر او الكرم والمهارة التي أحاطتني بها اميركا .

ولكن حبي لاميركا ليس حباً اعمى ، بل قد اكون اكثر تحسساً باخطائها لعمق محبتي إياهـا ؛ كما انني لست عمياء بالنسبة لاخطائي الخاصة . من السهل التأكد من قلة ما في العادات القديمة من فضيلة ، وان عـــادات جديدة يجب ان توجد ، غير اني أعرف ان ليس من السهل على الانسان ، حتى بعد ان يجد الجواب على ما سبق ، ان يشق طريقه بثبات في عالم متقلب سريع !

عندما إتسعت تجاربي وازدادت عمقاً بدأت مشاعر الطفولة وانطباعاتها تحدد نفسها في افكار معينة . والطبيعة — العالم الذي استطعت لمسه — انطوت في نفسي وملأتها. انني اشعر بميل الى تصديق اولئك الفلاسفة الذين يدعون باننا لا نعرف شيئاً سوى مشاعرنا وافكارنا . والحقيقة اننا بقليل من التمعن نرى ان دنيـــا المادة ليست الا مرآة او ظلاً لأحاسيسنا العقلية .

وفي كلتـــا الحالتين تبقى معرفة النفس شرطاً لظهور وعينا وتحديد مداه.وربما فسر هذا كون الكثير من الناس لا يعرفون شيئاً عما يجري وراء النطاق الضيق لاختباراتهم. فهم ينظرون داخل نفوسهم فلا يجدون شيئاً فيستنتجون أنه لا شيء كائن خارج ذواتهم ايضاً ...

إننا نحقر انفسنا اذ نظن أن حرية الاختيـــار في
الامور الصغيرة والتي نمارسها يومياً هي حقيرة .

قال شاعر مرة : « انني لسعيد لأنني لم ار برودة الحـاضر وعريه بل عشت في حلم جميل » . وانا اؤمن بالحلم الجميل ، ولكن حلمي هو الواقع الحاضر – وهو غير بارد بل دافىء،وغير عار بل مكتس بآلاف الرحمات. والشر الذي افترض الشاعر انه ضلال ، ضروري لمعرفة الفرح . فباحتكاكي بالشر تعلمت كيف اشعر عن طريق المقارنة بجمال الصدق والحب والطيبة .

من لا ير ان السرور قوة هامة في العالم يفقد جوهر الحياة . فالسرور عضد روحي يهب تقلبات الدهر الثبات، والوحدة والاهمية. والايمان بانتصار الخير يهب الحياة للجنس البشري . والتفاؤل المستنير يخلق في الانسان هدفاً بناء كما يخلصه من المخاوف التي تعرقل تفكيره .

والتشاؤم أو التسليم السلبي للقدر ، يضعف الروح ويميل بالمجتمع الى الخراب ... اما التسليم المقدر فقوة دافقة ... والأول اسف وندامة والثاني امتلاك ، لأنه ايمان والايمان قوة محركة .

التفاؤل بريق الله الذي ينير الجو المغلق بضباب القدر...

احياناً يطويني شعور فظيع بالوحـــدة كأنه سحابة ضباب بارد بينما اجلس وحيدة وانتظر على باب الحياة المغلق في وجهـي .

فهناك وراء الباب ضوء وموسيقى ورفقة سعيدة ولكني ممنوعة من الدخول ، لان القدر والسكون وعدم الرحمة تسد الطريق . وعبثا احاول ان اسأله قضاءه المخيف فقلبي لا يزال عاطفياً لم يتعلم الانضباط بعد . ولكن لساني لا ينطق كلمات المرارة الجوقاء التي تصل الى شفتيّ ثم تتساقط راجعـــة الى قلبي كأنها دموع لم تذرف .. فيخيم الظلام بكلكله على روحي. ولكن سرعان ما يسود الأمل بابتسامة وهمسة تقول: « إن السرور بنسيان الذات» فاعود وأحاول أن أجعـــل من نور عيون الآخرين شمسي المضيئة ومن الموسيقى في آذانهم سيمفونيتي ، والابتسامة على شفاههم سعادتي ...

يجب ان لا يثبط عزائمنا امتلاء نفوسنا بالشك. فالاسئلة الصحيحة تبقي الايمان حيوياً ومتحركاً . حقاً اذا نحن لم نبدأ بالسؤال فلن نحصل على ايمان عميق الجذور. فمن يؤمن بخفة وبدون تفكير فليس فيه من الايمان شيء ، اما من يملك ايماناً ثابتاً لا يتزعزع فيكون قد ملكه بالدماء والدموع، وشق طريقه من الشك الى اليقين .. مثله مثل من يخرج الى العراء بعد طول ضياع في غابة من الأشواك ...

واجه عيوبك واعترف بوجودها دون أن تدعها تتحكم فيك ، دعها تعلمك الصبر والرقة وحدة البصيرة : ان الثقافة الحقيقية تشمل العقل والجمال والطيبة ، واعظم هذه الصفات هي الطيبة : وعندما نبذل احسن ما نملكه من جهد ، لا ندرك اية معجزة حدثت في حياتنا او في حياة شخص آخر .

عندما نولد في الجسد نكون اشقياء وعندما نولد في الروح نتحرر ونصبح الى حد ما خلاقين . ليس لنا يد في مجيئنا الى الوجود ، وبالتالي لا نستطيع ان نصنع من انفسنا شيئاً قبل ان نوجد.. ولكن الامر يختلف في ولادتنا الروحية فانطلاقنا نحو الحياة قضية اختيارية ولا يمكن ان تفرض علينا حياة روحية ضد ارادتنا ودون قبولنا .

هذه هي فلسفة دعوى الرب المحبة لنا بان نأتي اليه ونختار الحياة ونحترس من الشر الذي يحاول ان يسرق منا الحياة التي اخترنا . فقط بممارسة قوانا التفكيرية والابقاء على الدفء الذي يعمر قلوبنا نصبح احياء حقاً .. ولكن هذا العمل الجميل لا يأتي بطريق الملاحظة بل انه يتكامل في اعماق النفس ، وكما قال الرب: «تهب الريح من حيث تشاء وتسمع صوتها ولكنك لن تعرف من اين اتت والى اين ستذهب . وهكذا يكون كل من يولد بالروح».

لا داعي للارتعاش أمام كلمة « أزمة » فقد لا تعني بالضرورة نهاية حزينة . بل ربما كانت اختياراً بين نور أعظم ونور أقل ، أو بين قيم مهترئة وخير تقدمي ، وتبقى شجاعة اتخاذ القرار حق للانسان ... قرارات الاختيار العادية محرجة ... الكلمات البسيطة حاسمة . وتتحلى كل مرة نتقاسم فيها الخبز مع بعضنا بطابع الانسانية المطلقة . وفي هذا يكمن سبب شعورنا بتوبيخ الضمير كلما مات فرد منا لأننا لم نظهر له التقدير الكافي ولم نمد له يد العون وهو بيننا .

ان مسراتنا أضيق من أن نبعثرها في حقول الاعتدال بينما نملك منها ما يكفي لأن يبقينا في أسمى حالاتنا كل يوم . ان تقلبات الدهر كثيرة متعددة ومشوشة لدرجة اننا لا نستطيع المغامرة باهمال خطوط دفاعنا النفسية .

عندمـا يمزق الأسى قلوبنا تتيه أرواحنـا كمسافر ضاع في أحشاء غابة. ويتملكنا الفزع ونفقد حاسة الاتجاه فنصطدم بالاشجار والصخور محاولين عبثاً العثور على ممر للخلاص: بينما الممر موجود طيلة الوقت — ممر الايمـان — الذي يقودنا مباشرة من غياهب التيه، مـن مصاعبنا الى الصراط المفتوح الذي نبحث عنه...

قدمت لنا الفلسفة القديمة حجة ما تزال دامغة حتّى الآن : في الأعمى والبصير « شيء مطلق » يضفي الصدق على ما نؤمن بأنه حق ، ويضفي النظام على ما هـو منتظم ، والجمال على ما هو جميل وشعور اللمس على ما يلمس ... فاذا كان هذا صحيحاً فلا يمكن أن يكـون ذلك الشيء المطلق في نفوسنا غير كامل أو متحيز .. بل عليه حتماً بأن يمتد الى ما وراء حقائق الحواس المحدودة فيسلط الضوء على ما لا يُرى ، والموسيقى عـلى كل ما هو موسيقي أخرسه الصمت ...

ومن هنا نرى أن العقل نفسه يجبرنا عـلى الأعتراف بأننا نعيش في عالم ذي نظام « فكري » ، جمالي وتناسقي. وجوهر هذه الافكار يطرد أضدادها التي تنتمي الى الشر والفوضى والنشاز ... وبالتالي ... لا وجود للعمى أو الطرش في « العقل اللامادي » الذي هو ، فلسفيـاً ، العالم الحقيقي فهما مطرودان منه مع باقي الحواس المادية .

فالحقيقة — التي تمثل فيها المرئيات المادية الرمز فقط — تلمع في ذهني ... وبينما تتعثر خطاي في غرفتي تنطلق روحي في أجواء الفضاء وكأنها على أجنحة النسور وتتطلع بنظرة لاترتوي الى عالم الجمال الأبدي ... السرمدي .

ليست القيود على اختلاف أنواعهـا سوى أشكال من التأديب يشجع على تطوير الذات والسعي وراء الحرية الصحيحة : والقيود أداة وضعت في أيدينا لكي نزيح بها ركام الصخور والصوان التي تمنع بروز مواهبنا العاليـة المختفية في أعماق نفوسنا . وتمزق أيضاً عصائب اللامبالاة من على عيوننا ، فنرى الأعباء التي ترزح تحتها أكتـاف الغير لنهرع لمساعدتهم خضوعاً لأوامر القلب الرؤوم .

دع التشاؤم يتحكم في العقل فترة لترى الحيـــاة تنقلب رأساً على عقب ، ويصبح كل شيء باطلاً ، معادياً للروح وتبقى الوسيلة الوحيدة لعلاج أنانية الفرد أو فوضى المجتمع النسيان أو الفناء .

« لنأكل ونشرب ونبتهج الآن لأننا سنموت غداً » هكذا يقول المتشائم ولو حدث ونظرت الى حياتي من هذه الزاوية لكنت قد انتهيت !

إذاً لبقيت أبحث عبثاً عن النور الذي لن يزور عيـني وعن الالحان التي لن ترن في اذنـي . ولبقيت أرجو الأيام وأتوسل الى الليالي دون جدوى . ولكنت انزويت في عزلة مرعبة فريسة للخوف واليأس ...

ولكونـي اعتبر من واجبي لنفسي وللآخرين أن أكون سعيدة تراني نجوت من شقاء اشد بكثير من اي حرمان جسدي اعانيه الآن !

أنا لا أدعي معرفة جميع الحلول لمشاكل العالم ولكنني احمل شعوراً دينياً دافعاً بأن من واجبي إصلاحه .

وكثيراً ما احس باهتمام شديد لقضايا لا تتعلق بي مطلقاً وكثيراً ما لزمت جانب الصمت في قضايا تهمني جـــداً خوفاً من ان اسبب ضرراً لاحد بسبب آرائـي وافكاري، لم اكن ابداً مستعدة لأن اؤمن بأن طبيعـــة الانسان لن تتغير . وحتى إذا صدق القول بأنها لن تتغير فانـي متأكدة بأن بالامكان تحويل مجراها إلى نواحي النفع والخير .

وبرأيـي ان الحياة نفسها ، لا الغنى ، غاية الوجود — الحياة بمعناها الواسع الذي يشمل صفـــات الحب والسعادة والجهد المسر المبهج .

انا اعتقد ان الحرب هي الثمرة الحتمية لنظامنا الاقتصادي وحتى لو اخطأت هنا ايضاً فانني مؤمنة بأن الحق لا يحصر شيئاً بالاثارة بل قد يريح كل شيء .

تنمو قوة الارادة فينا بنسبة مضطردة مـــع تكرار ووضوح اعمالنا ، كما يسمو العقل لاستعمال الارادة عـــلى مستواها الجديد ويطبق الايمان : عندما ندع قراراً او عاطفة نبيلة تتلاشى بدون تنفيذ او نتيجة نخسر اكثر من فرصة سانحة ... نكون قد اعقنا تحقيق آمال المستقبل واصبنا بشلل البرودة حاسة الادراك في نفوسنا .

إن صدورنا ملأى بالشجاعة فيما يتعلق بالخيال المجرد وتنقصنا عندما نواجه ما هو موجود محسوس ذلك لاننـــا نسمح لجرعات الشجاعة التي تراودنا يومياً بـــأن تتبخر في الهواء .

انني اكرر الشكر لله يومياً على أمور ثلاثة : اشكره لانه منحني القدرة على معرفة اعماله ، واشكره اكثر لانه اضاء ظلمتي بشعلة الايمان ، واشكره بكل ما عندي من حرارة لانه منحني حياة اخرى اتطلع بشوق اليها ... حياة بهيجة مليئة بالنور والازهار وتراتيل السماء .

تنكشف لنا اعاجيب الكون بقدر مـــا نستطيع ان نستوعبه، منها وحدة نظرنا لا تتوقف عــلى ما نقدر ان نراه بل على مقدار ما نتحسسه ونشعر به . فالمعرفة وحدها لا تخلق الجمال ... والطبيعة تنشد احسن اغانيها لاولئـــك الذين يحبونها : وهي لا تكشف مواطن جمالهـــا واسرارها لاولئك الذين يأتونها بقصد التحليـــل والتشريح واستنباط الحقائق وتبويبها بل انها تتعرى امام اولئك الذين يجدون في مظاهرها اسمى معاني المشاعر الرفيعة والاحاسيس الرقيقة.

كان الشعار القديم ، ومن يستطيع ان يزيد عليه شيئاً « تجنب الشر وافعل الخير » :

باستطاعة اي انسان ينظر الى نفسه ان يرى ايـــة من رغباته تميل نحو خيره وخير الاخرين ؟

بعض الناس يعرفون ذلك بديهياً ، ولكن مع الاسف فان اكثر الناس تنقصهم البداهة .

وما زال هناك امل للناس بالوصول الى معرفة عيوبهم واخطائهم وزلاتهم اذا تفحصوها بامعان وتؤدة .

وكيفما شئت ان تسمي هؤلاء الناس ، فانهم سيعثرون على بواعث ومناهج جديدة تزيل القيود من طريقهم بحيث تصبح حياتهم اكثر حرية وسعادة ورفاهية .

تلك ايام سعيدة في حياتنا ، عندما نلتقي مع أناس يطربوننا بلقائهم كما نطرب من الشعر ، اولئك يعبرون عن مودتهم الخاصة لنا بهزة من ايديهم ، ويوحون الى نفوسنا العطشى ، وارواحنا الضجرة ، براحة وادعة ، مفعمة بعبير الطهارة من خلال طبيعتهم المرحة وسجيتهم الحلوة .

فالارتباكات ، والانفعالات ، والقلق الذي طغى علينا يمر كما يمر بنا الحلم الكريه ، فنستيقظ من جديد لنشاهد بعيوننا ونسمع بآذاننا تناسق الالحـــان في أنشودة العالم السماوي الحقيقي .

والفراغ المظلم الذي يملأ حياتنا يتفتح من جديد على امكانيات افضل واسمى .

وبكلمة مختصرة اقول اننا عندما نكون قريبين من مثل هؤلاء الاصدقاء نشعر بان كل شيء حولنا ينطق بالسعادة .

ربما لم نشاهدهم من قبل ، أو أنهم لن يقابلونا ثانية ، لكن تأثيرهم الهادىء علينا وسجيتهم الرقيقة ستبقى قرابين تتبخر على اقدامها ادران ضجرنا ، وستظل تنعش حياتنا كما تنعش الجداول المنسابة الى الاقيانوس ، مياهه المالحة .

نعلم استناداً الى جميع الفنون والطبائع و الفكر الانساني المتناسق ، بان النظام والتناسب والشكل ، من عنـــاصر الجمال الاساسية :

فالنظام والتناسب والشكل تلمس باليد : ولكن الجمال وايقاع الالحان ، اعمق من ان نشعر بها بواسطة اللمس : انها تشبه الحب والايمان ، وتنبع من معين روحي قلما يعتمد على الاحساس :

فالنظام ، والتناسق ، والشكل ، غير قادرة على تثبيت الفكرة المحددة للجمال في عقولنا ، الا اذا تميزنا بالغنى الروحي الذي يساعدنا على تنشق الحياة في محيطنا :

هناك اشخاص كثيرون يتحلون بحاسة البصر الكاملة، لكنهم عميان بشعورهم : وهناك اشخاص كثيرون لهم آذان سليمة ، لكنهم صمّ الشعور :

وهؤلاء هم الذين يسعون باضطراد ليحدوا من الافاق المفروضة امام الذين تنقصهم حاسة واحدة من الحواس أو أكثر ، رغماً عن انهم يتحلون بالارادة القوية ، والروح العالية والحنان الدافيء والخيال الواسع الخصيب :

الايمان يصبح عديم الفائدة اذا لم يعلمنا كيف نبني عالماً اكمل واجمل من العالم المادي : وانا ... استطيع القول، إن بامكاني ان ابني عالماً افضل لي لأنني ابنة الله ووريثة جزء من ذلك العقل الخلاق الذي ابدع العالم .

حيثما نتطلع نجد اليد في الزمن والتـــاريخ ، تعمل وتبني ، تخترع وتنتشل الحضارة من احضان البربرية .

فاليد رمز القوة وعنوان العمل الخلاق .

ان يد الميكانيكي التي تضبط الآلات ، واليـــد التي تحصد وتزرع ، وتقطع وتبني ، مفيدة في العالم تماماً كتلك اليد الناعمة التي تضع رسمها لزهرة جميلة أو يد رجـــل الدولة التي تخط قانوناً .

والعين لا يمكنها ان تقول لليد « انا لست بحاجة اليك »

« بوركت اليد التي تعمل ، وبوركت مثنى وثـــلاث الايادي التي تشتغل . »

ان الحياة لا تستقي كل قوتها ومعانيها من الماضي — ومع ولادة كل طفل تضع الطبيعة كل التقاليد جانباً ما عدا تلك التي يفرضها الانسان على نفسه .

وليست هناك اية تقاليد تقضي على الطفل ان يتقيد بها في تنفسه وتفكيره ونطقه ، او في كيفية تقــوية اعضائه وعضلاته — في صراعه من اجل البقاء .

اذن دعونا نبحث في حقيقة التقاليد التي نندبها حتى اذا وجدناها عكازات للعقول السخيفة أو الارادات الناعمة ، نتوقف عن تغذيتها والتمسك بها . لنجعل هدفنا في الحياة ان نخلف لذريتنا حياة تفيض بالحماس لتدفع بهم الى اهداف أنبل واسمى ولنتخل عن نظرتنا الناقصة ، ومعرفتنا المتوسطة وتقديسنا انصاف الالهة ، وجميع امراضنا العقلية والجسدية .

ولا يعني ذلك ان الخطر الاكبر امامنا قد زال بازالة هذه النواقص ، فهناك الدعاية المضللة التي لا تدعمها النية الحسنة ولا الايمان .

لدي اعتقاد راسخ بأن أسمى مزايا الانسانية ما زالت على وجه الاجيال هاجعة نائمة .

ان النفوس العظيمة تكشف عن مخبوآت عظيمة للعقل والقلب ، يفتقر اليها منهم دون اقرانهم في المعرفة.

والنبل الفطري يجعل ممكناً لجميع النـــاس ان يميزوه عندما يرونه ، كما يتمكن القارىء الذكي من ان يقدر شعراً جميلاً كتبه شاعر مغمور .

الايمان يرحب بالافكار ويجعل أيادي الشعوب الاخرى تصفق بحماس . ولعدم وجود شعب يملك الحكمة الكافية ليحكم غيره ، انهارت دعائم الامبراطوريات ، وما زالت تتساقط . واختلاف اللغة يجعل من العسير فهم ثقافة الغرباء التي هي طريقهم للتعبير عن أفكارهم ، خصوصاً عندما يتبادلون الرأي بتحامل وضغينة ، فلا يستمعون ولا يريدون الاصغاء للرأي المقابل .

ليس هناك اثنان متشابهان تماماً ، وليس هناك اثنان قادران على فهم بعضهما البعض تماماً ، بل وليس هناك صديقان حميمان يعرفان نفسيتيهما . ولكن بامكان كل واحد منهما ان يكسب من الآخر تلاميح بواعث قدرة جديدة وأنواع جديدة من الحقيقة . وبهذه الطريقة ذاتها يتسنى لكل شعب من الشعوب ان يعطي الآخر كل ما عنده من التعاليم الروحية والثقافة . وان يتسلم بكل تواضع وجهة نظر الشعب الآخر ، التي تكون غالباً نوعاً جديداً من الحكمة اكتسبها الشعب في عدة اختبارات وتجارب مختلفة .

عندئذ يمكن للشعبين ان ينشدا الانسجام من حيث ينبع ايمانهما ويرن برنين الحقيقة .

حصل هذا في بعض الحالات ، وسوف يعم هذا الايمان العالم ويسود فيه .

الربيع والخريف ، أوقات الزرع والحصاد ، هطول المطر واشراقة الشمس ، برودة الشتاء وحرارة الصيف ، كلها أشياء عابرة تتغير .

اما وقد خبرنا معرفة تقلب الاشياء ، فلم نكثر التفكير في حتمية الفناء ؟ ولم لا نواجه الحياة والموت على السواء دون خوف أو وجل ؟

فكرة طالما راودت مخيلتي ، وكانت تتجلى لي حقيقتها كلما قرأت وأصغيت . وهي أن مفرداتنا ليست مطابقة بمعانيها لما أحرزناه من التقدم الباطني .

ويبدو لي أن الاخطاء والميول الشيطانية لها معجم كامل ناجز خاص بها ، بينما للصفات الايجابية في الانسان صفحة واحدة مختصرة . ربما كان السبب ان الخير يرفض أن يجزأ وأن يتسم بطابع الشر . وكيفما كان الحال فاني لم أعثر على كلمة تدل على الخير يوازي معناها ما يدل على الشر .

واذا سمحنا لفكرة ضائبة ان تمر لتذهب مع الريح ، يكون عملنا تبديداً ، كتبديد طاقة الاشعاع القوية رغم ضآلة وحداتها .

فالايمان يجب ان يضم كلمات عاملة مؤثرة ، بالاضافة الى المحاسن الكامنة في ذواتنا بدون تعبير ... وذلك لاجل ارتقاء العالم الذي سيبرز من خلال طاقاتنا التي لا تحصى :

ان غباوتنا لا تغير مقدار ذرة من طريق الحقائق الكامنة في نفوسنا . أما فيما يخصنا ، فالقول بان الخيال هو أوسع باب لولوج العالم الرائع ، لا يقل حقيقة عن حقيقة المرئيات .

فاذا أردت ان تصبح شيئاً غير ما انت عليه — شيء مدهش ونبيل وجميل — فاطبق عينيك ، وفي لحظه خاطفة ستری بانك أصبحت ذلك الشيء الذي تتوق اليه .

نحن الآن ورثة لأعظم أجهزة ميكانيكية مدهشة في التاريخ . ولكننا كلما أورثناها باعتزاز لجيل طالع ، ننسى بأن الحضارة تفقد معناها الانساني والروحي إذا نحن لم نعد التفكير بها وأحييناها من جديد في قلوبنا ونفوسنا : إذ يمكن نقل التطبيقات ولكن أنى لنا بنقل العقول والشخصيات .

ان غلطتنا الاخيرة والتي يجب أن نتحاشى انقلابها الى كارثة ، ناجمة عن تكريمنا للآلة المادية ، مبتعدين عن الواحد القهار الذي يمكنه ان يكشف عن الجمال الرائع الذي يخفونه وأن يرفعهم اليه كالبخار الى جنانه حيث مخازن المسرات .

نحن أرواح لا أشياء ، ولأجل ذلك فان الأشياء نوع آخر من الروح تسعى بحقارة لترتفع من جديد كأفكار وبواعث خلاقة في الكون . والشعر خطبهم أو قل صلاتهم ؛ ليس هناك وسطاء لأرواحنا ، وما نحن سوى وسطاء لآلة جبارة مدهشة تبحث عن روح لها .

تخبرنا الاسطورة بأن الشمس رقصت في السماء عندما ولد المسيح ، والاشجار العاتية استقامت وجددت أوراقها وأرسلت عبير أزاهيرها من جديد . هـذه هي الرموز التي تدخل قلوبنا في كل عام نحيي فيه ذكرى مولد المسيح . وطبائعنا التي تباركها أشعة شمس الميلاد ، تبعث فينا حباً جديداً ، ولطفاً جديداً ، ورحمة جديدة ، وحناناً زائداً .

وكما ان ولادة المسيح كانت بداية للحياة المسيحية ، كذلك مسراتنا البريئة في يوم الميلاد يجب ان تكون بداية للروح التي ستحكم طوال السنة الجديدة .

كم يحز الأسى في نفسي كلما فكرت بان امكانياتي لا تسمح لي باسداء خدمة أكبر للفقراء والمثقلين والجهلة؛ « ولكن لماذا أراني أثرثر حول اشواقي هذه » كما يقول اليابانيون أحياناً ؟

انا اعتقد بان البشر ليسوا سوى نقاط طفيفة تائهة في أوقيانوس الزمن . وان جلّ ما يستطيع أن يصنعه أي جنس من البشر أو أي فرد ، هو التفكير بمقدار أعمق عن أهداف العقل الالهي . ذلك النوع من البشر أو ذلك الفرد يحقق أعظم غاية للقدر بعمله كأحسن وسيط لنقل تيارات السلام والوئام عبر الاجيال .

وهناك اعتقاد راسخ ثانٍ في أن هناك حارساً آلهياً يسيّر الكواكب والنجوم ، وتنقلات الشحارير ، ويدوّن شؤون الانسانية ويقوّي فينا عزيمة الاجتهاد . وهذا الاعتقاد بأن الله يهتم بنا شخصياً يعطينا فكرة أوضح عن العالم القديم المتعب حيث نعيش كالغرباء والاعداء . ويعطي الدليل لاولئك الذين بامكانهم ان يؤمنوا بوجود هذه القوة . ويجعلهم يتأكدون بان الانسانية قادرة على التغلب على الشراك ، وتدبير المكائد ، وجشع الخبثاء . وعندما يعلمون بان جيوش الله تضرب خيامها حولهم ، فلن يخشوا الجيوش أو الاساطيل او خطوط الدفاع .. ولسوف يؤمنون سراً بأن جميع الرجال سيصبحون في

يوم من الايام احباباً ، فتضمحل جميع المصائب على الارض ليحل محلها السلام والوئام .

انى عارفة بأن هذه الصورة عن الخالق تبدو قديمة لدى الكثيرين ؛ ولكنني ، من حين الى آخر أفشل بسماع صوته في كينونتي ، فتسيطر الشكوك على ذهني ، ولكني لا استطيع ان اتخلى عن هذا الايمان ، لانني لو فعلت ذلك لفقدت النور الذي يضيء طريقي في دياجير الظلمة .

ان حياتي سجل حافل بالصداقة . فجميع أصدقائي من حولي يخلقون لي عالماً جديداً كل يوم ، لأنه بدون محبتهم وعنايتهم ، لا تكفيني شجاعتي للاحتفاظ بقلبي قوياً على مواجهة صعاب الحياة . ولكنني كما قال ستيفنسون ، أعلم بأنه افضل للمرء ان يقوم بالاشياء من ان يتخيلها .

أدرس «يد» الانسان فسوف تجدها صورة حية عن الرجل ، وقصة نمو البشرية ، ومقياساً لعظمة العالم وضعفه .

انها بشجاعتها ، وثباتها ، ومثابرتها على العمل تحقق الرفاهية للجنس البشري : وعلى أمانة هذه القوة الكامنة في الايادي الصلبة تتوقف حياة كل فرد منا .

ألوف من البشر تدخل في عربات القطار الحديدي كل يوم واضعة حياتها أمانة في الأيدي القابضة على صمامات القاطرة . مثل هذه المسؤولية تلهب الخيال . ولكن هناك فكرة اكثر عمقاً وهي أن القضاء والقدر وحياة البشر اليومية تتوقف على الايدي الكثيرة غير المنظورة التي لم تقم بعد بأية حركة دراماتيكية لتذكر العالم بوجودها .

مثل الانسان الذي يقاسي أسى عظيماً كمثل من يدخل كهفاً فيكتنفه الظلام وتسيطر عليه الوحدة والحنين الى عالم افضل .

الافكار الحزينة كالخفافيش ، ترفرف بأجنحتها حولنا في الظلام ، فنشعر وكأن لا مفرّ من السجن في قفص الألم .

لكن الله ، بعطفه المحبب ، أضاء لنا مشعل الايمان فوق الحائط الذي لا نراه . وسترشدنا أشعة ذلك المصباح الى عالم كله نور حيث العمـــل ، والاصدقاء ، والمنافع بانتظارنا .

المعرفة قوة ... ولكن الأفضل القول بأنها السعادة .
لان اقتباس المعرفة .. المعرفة الواسعة العميقة يكون بالقدرة على تمييز الاهداف الحقيقية من الزائفة والامور السامية من الحقيرة .

ولكي نعرف الافكار والمآثر التي سجلت نجاحاً للانسان علينا ان نتحسس خفقات قلب الانسانية عبر القرون وان لم يستشعر أحدنا بأن في هذه الخفقات جوع للصعود عالياً نحو السماء فانه أصم لا يسمع ألحان الحياة المتناسقة .

ان مصيبة الأعمى جسيمة ، لا تعوض . ولكنها ليست بالقدر الذي يجعلنا نخسر نصيبنا من الاشياء المحسوبة علينا كالخدمة والصداقة وروح المرح ، والتأمل والحكمة . ان الارادة الخفية في الانسان هي التي تسيطر على مصيرنا . لدينا القدرة بأن نكون اخياراً وان نُحِب ونُحَبَّ وان نفكر باتجاه الهدف الذي يمكن ان يجعلنا حكماء .

نحن نملك جميع هذه القوى الروحية التي تولد معنا على غرار جميع الاطفال الذين يولدون بالرب : لذلك فاننا قادرون على رؤية البرق وسماع الرعد في سيناء .

ونحن ايضاً نسـير في البراري والأماكن المقفرة حيث نشعر بالسعادة . وبينما نسير فان الله قادرٌ ان يجعل الصحارى تزهر مثل الورود . ونحن ايضاً نسير الى الفردوس لنحوز على كنوز الروح حيث تتدفق الحياة وتنمو الطبيعة باستمرار .

لا يمكن للحضارة ان تسير الى الوراء ما دام عنصر الشباب موجوداً في العالم . يجوز أن يكون الشباب عنيداً ، لكنه سوف يجتاز الابعاد المحددة له .

وفي المعارك التي خضناها عبر العصور مع قوى الشر والفقر ، والشقاء ، والجهل ، والحرب والبشاعة والاستعباد ، تغلب الشباب على جميع قوى الأعداء . وهذا ما يجعلني أن لا ادير ظهري للجيل الجديد بضيق لما يتحلى به من الخبرة والمعرفة . وعليه وحده نعول باحراز النجاة التي ننتظر تحقيقها .

ما زالت التجارب في إحياء تراث العقل البشري في مراحلها الأولى :

وذلك يقضي علينا بأن نضع ايماننا كله في خدمتها لاتمام العمل المتعلق بها .

وحسب ما توحي الينا الحوادث الراهنة ، فأننا قريبون جداً من الهوة التي ستعيد العالم الى العصور المظلمة اذا سمحنا لاختباراتنا بأن تمر ناقصة من الايمان .

واذا داومنا التطلع الى الهوة ، فان الهوة سوف ترتد علينا وتبتلعنا . فعلينا ان نقضي على هذه العادة الخبيثة لأنها تطيل أجل اكفاننا العقلية وتحرم العابد بالتالي من التفكير بأنه شريك في الايمان الذي يعتقد به :

فالمجازفة الشريفة يجب ان تقوم في سبيل التقدم لا غير :

اذا تعرّضت المثل العليا التي نسير على هديها للكبت أو الفناء ، فأن ذكرها يخمد محلياً فقط والى حين . وسوف تعود الى النمو بواسطة القدرة الالهية التي لا تقهر عن طريق تحويل بعض الافراد من اتباعها المؤمنين المجهولين وغير المعروفين الى قوة بناءة لتعمل من أجل الخير : ومثل هؤلاء يصونون التاريخ دائماً ، أكان ذلك من حيث المثل العليا أو القيام بالشؤون الزمنية على الارض .

وانا أعتقد بأن الاضطراب السائد الآن في العالم يعود بأسبابه الى الجهاد المرير الذي يقوم بمثله هؤلاء الافذاذ للوصول الى مركز الزعامة في العالم ؛ لانهم بعملهم هذا أثاروا نقمة قوى المعارضة التي يريدون التغلب عليها، تلك القوى التي يكمن وراءها الجشع والكراهية والخوف والتحامل والتعصب .

وما أشبه اليوم بذلك اليوم الذي بزغت فيه شمس البداية عندما كان الظلام مخيماً في كل مكان وروح الله طافية على وجه الماء .

وعندما يحين الوقت ، سوف يشع النور اكثر فأكثر في عيد الفصح الحقيقي ، حيث يتسنى لنا مشاهدة منارة جديدة على الارض تضج بنور السماء ،

انا واثقة ، اننا لن نسترسل في البكاء اذا أتاح الحظ لصديق لنا حميم أن ينتقل من بيت حقير مزعج الى بيت رحب تتسلل اليه أشعة الشمس وارضه الواسعة واحة من الجمال والذهول والافراح .

سوف نقول انه كان صديقاً محظوظاً . وبقليل من الرغبة ، نتطلع الى الوقت الذي سنتمكن فيه ان نزيح عن اكتافنا ثقل أعمالنا اليومية لنشاركه الجمال والنور اللذين ينعم بهما في بيته .

لقد علّمنا الشعراء أن الليل مفعم بالمدهشات ، وأنا أقول إن الظلام لا يخلو من المدهشات أيضاً .

والظلام الوحيد الخالي من كل قبس هو ليل الجهل وفقدان الشعور . ونحن ، العميان منا والمبصرين ، يختلف أحدنا عن الآخر ليس بحواسنا فقط ولكن بالطريقة التي نمارسها ، في خيالنا ، وفي شجاعتنا ، بينما نسعى للاهتداء إلى الحكمة الكامنة وراء مداركنا

في سبيل الأبقاء على بهجة الحياة، يتحتم علينا الاعتقاد
ن الغموض والظلمة التي نصارع في دياجيرها ستضاء يوماً
بأنوار الحل المنشود .

ونحن نرى منذ الآن دلائل وإشارات المعــرفة التي
ستغمرنا عندما نرى النور وجهاً لوجه .

المعرفة ذاتها ، التي تبدو للطائشين وكأنها منفصلة عن الايمـــان ، تتحدانا على الدوام حتى ننبذ عيشة الاقزام . لان المعرفة ما هي سوى ايمان يدفع بنا الى حد المغامرة بكل شيء يتعلق بالحياة على اساس نظريات وهمية تمكننا من إحياء الامال الكبار للجنس البشري من وراء المجهول.

إن تقـــدم المعرفة ونشاطها على تكديس الاختراعات وجني المكاسب وحربها الضروس على الامراض لتعد من الاعمال الجليلة التي سجلها الانسان في صراعه نحو الاعالي.

اذا كان مثل هذا الايمان البسيط قد استحث الحكمة لكي تفتح امامنا المجال تلو الآخر لمعرفة ما وراء الطبيعة، فما هو بالأحرى مقدار ما سيحققه لنا ايمان كامل، يهتدي بالتفكير ، من السيطرة الواسعة على روح الانسان ؟

ومع كل ذلك ، ما هو سلوكنـــا نحن ابناء العصر الحديث تجاه تلك السجلات عن الايمان ؟ تائهين قانطين على شاطىء اليابسة التي وطأتهـــا اقدامنا . لم اعتقد بأنني سأعيش لاشاهد مثل هذا الانهيار العصبي لشعب ، وهذا الانحطاط الشامل في الأسس .

ان الفراغ الروحي لا يفيدنا بشيء خصوصاً عنـــدما
نشعر بأننا رفقاء على قدم المساواة مع الكواكب والذرّات.

بما أننا مندفعون وراء العيش بأنانية، يبدو من الواجب ان يكون هناك شيء رادع يكمن في اعماق نفوسنا ، يعكس مثل هذا الاتجاه . اذ ان الحياة المثلى التي اخترناها والتي نسعى الى تحقيقها تتطلب معرفة سابقة عن هذه الحياة.

وماذا سيخلصنا من الصيرورة اكثر فأكثر كالحيوانات، اذا لم يكن في قرارة نفوسنا ميول اخرى اكثر نبلاً واسمى عاطفة ؟

ولا يمكننا اختيار الطريق السوي لأنفسنا بحرية وحكمة الا اذا توصلنا الى معرفة الخير والشر .

انا ضريرة ، ولذلك لم ار في حياتي صورة قوس قزح ، لكنني اخبرك عن روعة جماله . واعرف ان جماله يكون دائماً مشوهاً وناقصاً وانه لا يبسط جماله الكامل في عرض السماء ابداً . كذلك هي صورة الاشياء التي نعرفها ونعيشها على الارض . والحياة نفسها ناقصة ومشوهة بنظر كل فرد منا ، كما تظهر تقاطيع قوس قزح في السماء .

والى ان نخطو اول خطوة من حياتنا في الطريق المؤدية الى الحياة الابدية ، لن ندرك ما يعنيه « براونينغ » بهذه الكلمات :

« على الارض اقواس مشوهة ، اما في السماء فثمة دائرة كاملة » .

لا يوجد مكان للخوف والندم في مفردات الشباب، الذين يرفرفون باجنحتهم البيضاء المنعشة باتجـــاه شواطىء الأرض الموعودة الأرجوانية .

كونوا فرحين ، وحدثوا احاديث الفرح والسرور . فالسرور يدعو الآخرين لأن يردوا عليكم بسرورهم .

في العالم ما فيه الكفاية من الاحزان بلا احزانـكم . ثوروا على الظلم والقسوة بمقدار ما تريدون ، وحريّ بنا ان نبقى حذرين في الصراع لنضرب المعتدين بشدة حينما نلتقي بهم .

ولكن حذار من الشك في براعة وثبات ما سيكون . ولا تشكوا ابداً في ان هذا العالم هو عالم الله، وان العمل الصالح الذي يقوم به اصغر ابنائه جدير بان يقرّبه اليه بمقدار ما يقرب العباقرة من اجل اعمالهم العظيمة . وانتم لستم باقل حاجة لتشييد هذا العالم من لوثر ولينكولن .

انضموا الى تلك الجماعة العظيمة التي يجعل افرادها الاماكن القاحلة في الحياة مثمرة بالعطف والمودة . احملوا صورة السماء في نفوسكم ، وسترون كيف ستجلون بيوتكم، وكلياتكم والعالم اجمع مطابقة لذلك المنظر الجميل،

في نفوسكم تكمن اسباب نجاحكم ومسراتكم . وان العوارض السطحية التي تعترض سبيلنا في الحياة تؤثر على اطارها المزخرف الخارجي فقط . فالحقائق العظيمة الثابتة هي الحب والصلاة .

الفرح هو النار المقدسة التي تبقي الحماس في اهدافنا وذكائنا مشتعلاً . والعمل بدون فرح كالهباء .

جاهدوا كي تظلوا سعداء ، لانكم انتم وافراحكم تشكلون حصناً منيعاً يصد عنكم العقبات .

ان عملية تحلّل البشرية من الافكار القديمة تسير ببطء. ومع ان الجنس البشري لا يأخذ طريقه نحو الطرق الجديدة في الحياة بسهولة ، فانني لا اشعر بخيبة الامل .

وبالرغم من العوائق الناجمة عن مصاعبي الطبيعية ، فانني شخصياً اشعر بانها تولد فيّ قوة جبارة تكفي ان تجعلني قادرة على تخطي جميع العقبات التي تعترض طريقي وهذا ايضاً صحيح بالنسبة الى مشاكل العالم . لذلك ما علينا هو ان نعمل باقصى جهودنا لتوحيد قوى الخير الروحية ضد قوى الشر المادية .

وعلينا ان نصلي ، ليس لاهداف معادلة لقوتنا ، بل لكي نوهب قوة معادلة لاهدافنا ، حتى نسير الى الامام ابداً برغبة حقيقية قارعين ابواب قلوبنا كلما مشينا باتجاه هدفنا الماثل بعيداً امامنا .

قلما افكر الان بالاشياء التي حرمت منها ؛ لانها لم تعد تؤلمني كما كانت في الماضي عندما كنت اتعرض للثورة في لحظات قاسية من جراء تفكيري القائل بانني سأبقى جالسة على باب الحياة المغلق احارب الانفعالات العاطفية الكامنة في طبيعتي .

وأنا اعلم ان ثمة كثيرين من البشر يشفقون علي بسبب ضعفي في اعطاء برهان ملموس ضئيل في الحياة .

وغالباً ما كانوا يشمخون بانوفهم واحياناً يكفون عن غرورهم أمام الشيء الحقير الذي اغلقت في وجهه جميع الاشياء التي يعرفونها :

وكانوا اذا التقوا بي في احدى الزوايا التجارية التي يعج فيها الناس كثيراً ما يجفلون كأنما كانوا يواجهون شبحاً من الاشباح على الطريق . وفي مثل تلك الحالات كنت ابتسم في داخل ذاتي واجمع احلامي المبعثرة حولي ، وامشي :

ان اسباب حياتي سوف تفقد معناها فيما لو ان الحقيقة التي يدعون أنهم يرونها لم تحجب وجهها الفظ تحت ستار من التخيلات السارة — اذا كانت فعلا تخيلات —

وليس من داع للأنسان كي يختصم على تحديد التعابير اذا كان يملك الجوهر الاساسي ، لذلك فانني شعرت منذ ان اكتشفت أن الوجود مفعم بالمسرات والمنافع ، أنني امتلك مثل هذا الجوهر .

الايمان لا يمن علينا دائماً بالعطايا والمواهب ، فانه يريد ان يأخذ احياناً . وان تقول إن لدى الاخرين ما يعطونه ، بينما لا نقدر على العطاء ، قول هراء ، لا يتعدى حدود الذات . وحتى نكون على حذر من جميع المفاجآت التي تتألق في ذاتنا ، علينا ان نضع تحت امرتنا مقداراً من الحماسة من اجل الحياة ، يرجح كفة جميع مقتنياتنا المادية .

واذا ما عبرنا الى داخل نفوسنا بنعومة لئلا نقضي على احلامنا المتهيبة وبواعثنا ، فسوف نشعر بالدهشة كلما اقتربت عقولنا من ان تكشف الستار رويداً رويداً عن الكمال والوحدانية التي نمتلكها بكل قوة . وبوسعنا ان نوسع اجنحتنا على مدى اوسع ، كما اقدر ان اشهد بعد خبرة خمسين عاماً بدون انقطاع ، اذا حاولنا ان نجذب بعض الظواهر الحياتية ، ونضمها الى أفراحنا . وحسب معرفتي أقول بان التحديد الوحيد والمفيد للسعادة هو الكمال أي مزيج متناسق من جميع ما يشعر به الانسان ، بتخيلاته ومهارته عن العالم المكشوف امامه الذي ينتظر التدقيق فيه والمطالبة به .

ان محاولة التوفيق بين الشخصيات الكثيرة التي تتركب منها شخصيتي ، ستكون محاولة فاشلة . حتى انا شخصياً لا اقدر ان اسبرغور نفسي . واحياناً كثيرة أسائل نفسي سؤالات لا أقدر ان اجيب عليها . واجد قلبي يتألم عندما انتظر منه ان يشعر بالابتهاج ، وتنهمر الدموع من عيني عندما ترتسم الابتسامة على شفتي .

أنا أبشر بالحب ، والاخوة والسلام ، ولكنني عندما اكتشف التناقضات ، أجد نفسي تلوح بالسيف استعداداً للدخول في معركة .

وانا اعتقد بأن كل معتقد شريف يجب ان يعامل بالحسنى والانصاف ، وارفع صوتي عالياً ضد تلك الشعوب التي يتمسك حكامها بالمال والذهب .

ولكن ، عندما يتراءى لي من خلال الامزجة ، ان الدولة الناجزة ، التي يشع فيها السلام والاخوة والمحبة العالمية بعيدة عن التحقيق ، ادور بوجهي صوب التقسيم والمشاكسة والتهليل للحرب . فأشبه بذلك القديس بولس عندما يقول :

« اني ابتهج لشريعة الله التي تتعلق بداخلية الانسان، لكنني أرى ناموساً جديداً في أعضائي ، يصارع ضد الناموس الذي يكتنفه عقلي »

ومع ذلك فانني متأكدة من أن الحب سيضع كل شيء

في الطريق القويم في النهاية ، غـــير أنني لا يمكنني أن أشعر بالتعاطف مع اولئك المضطهدين الذين يشعرون أنهم منساقون لاستعمال القوة حتى يحصلوا على حقوقهم .

ان الحقائق التي تجهز معظم الاحياء للعمل والعلم كثيرة الى درجة انها توازي ما يوجد من ذرات الرمال على شاطيء البحر ، لكنه الايمان الذي يضيء الطريق أمامنا ويثبت لنا الحقائق التي نراها بحواسنا .

الايمان ، مثل الفلسفة ، تمنحني وحدة ذاتية لكنني افتقدها في جلبة تجاربي مع العالم المادي المجرد من حاستي البصر والسمع . بيد ان لروحي عيوناً كأي شخص آخر وبأيماني اخلق العالم الذي اتمناه واحملق فيه ، واضع ايامي ولياليِ الخاصة ، والون الغيوم بالوان النيران الزاهية واشاهد نصف الليل منتشراً مع النجوم .

لا يهمني اعطاء البينة والدليل . وهل يمكن ان يعطى الدليل على أمور ، كالسعادة او الجمال او الفرح مثلاً ؟ اذ ليس بالامكان تحديد السعادة بصورة افضل من تحديد الصحة ، لانك تعرف ذلك عندما تشعر بها فقط . وكل ما أريده هو ان احيا دون ان اسمح لايماني بان يهمس في اذني نبأ عن الفناء .

الهزيمة ممر الى المغامرات العقلية الجديرة بأن تجعل ايامنا التافهة ، اياماً لاذعة ، وتجعل الدم ينشد ويغني ، ويجوز ان تكتنف الكد مع النعمة .

هذا هو المعنى الكامن وراء انشودة الشاعر والت وايتمان التي يقول في مطلعها :

« ان النصر عظيم ؛ لكن الهزيمة ، اذا كانت ضرورية تصبح اعظم » .

بالعلم والدرس ، تنمو العين لترى الاشياء المعينـة بصورة اوضح . وتبدو الارض للعين المجردة ، منبسطة ، والنجوم تتراءى تماماً كما كان يراها الاقدمون . ولكن العلم فتح آفاقاً لا تحد من العجائب الجديدة والروعة التي تنطوي عليها هذه المظاهر الطبيعية .

يرى الطفل في الاشياء المحيطة به ما يريد او ما لا يريد ، ولكن عندما تحقق نيوتن من سقوط التفاحة بعد قذفها الى اعلى ليعبر عن قانون كوني في الطبيعة ، اضحى يرى بعينيه ما يكمن وراء حدود المرئيات العادية .

كذلك هو الحال في ارواحنا ، فأننا نتقدم كلما ادركنا بجلاء امكانيات الحياة الجديدة الكامنة في اتصالاتنا اليومية . ولكن اذا اغفلنا او تجاهلنا هذه الحقيقة الحيوية ، فأن الحواس ستقودنا نحو الظلام .

هـذا هو السبب الذي يجعل الحدود المفروضة امراً ضرورياً لنضع امامنا عظمة الحياة النفسية التي منحناها ، لكي تدلنا الى الامكانيات التي وهبنا الله اياها .

كل الدهور ، ودهور الزمن ، قبل ان تولد، وقبل ان تستيقظ الروح لوعيها الحاضر ... اين كنا ؟!

كل الدهور ، ودهور الزمن ، بعد ان تموت وتعود الروح الى الرقاد والاغفاء من وعيها الحاضر.. اين سنكون؟

عبثاً نسأل ... وعبثاً نتيه ونعجب ... ولكن ! اذا كانت الروح خالدة فلن يبقى لدينا سبب لأن نخشى مستقبلها او نتساءل عن ماضيها ... والأفضل اذن ... ان ننظر الى هذه ... هذه الحياة ... على انها « ومضة من الزمن بين ابدين » وان نؤمن بأن كل الجمال وكل الحقيقة وكل الرضى والروعة تكمن هناك في ذينك الابدين ، وليس هنا او في « الآن » .

انا اعلم ان هناك أناساً يضيقون بالافكار الروحية ، وأعرف ايضاً ان سبب ضيقهم يعـــود الى عدم معرفتهم بمدى إمكانياتهم ، لذلك اراهم يفقدون الكثير من الملذات المبهجة ، المنعشة التي كان بامكانهم التمتع بهـــا لو انهم عرفوا طريقة التفكير الذاتي . والرجل الضيق الصدر ، هو الرجل الذي لا يعرف نفسه ، ولم يتعرف على الله... وليس الله بمصدر ضيق لمن يعرفه ويحبه !

يستنتج المبصرون أن عالم الاعمى – وخاصة الاعمى الأطرش – يختلف لديه عن صورة العـالم المشع الناضر الذي يرونه ويعرفونه ، وكذلك يستنتجون أن تأثرات الاعمى واحساساته تختلف بالضرورة عن تأثراتهم واحساساتهم، وان شعوره العقلي بالوجود يتأثر الى حد بعيد بعاهتـه الجسدية .

ويذهبون في التضليل الى ابعد من ذلك فيتصورون ان ابواب الجمال والموسيقى والصور مغلقة بوجهه . ولكن يجب ان اخبرهم تكراراً أن عناصر الجمال ، والنظام، والصور وجميع الإجزاء الاخرى يراها الاعمى، لان الجمال وتناسق الانغام نتيجة حتمية لناموس روحاني يبدو اعمق من الحواس،

ومع ذلك ، كم هو عدد الناس الذين ينقلون بعيونهم صور هذه الحقـائق الى قلوبهم ؟ ومن منهم حمل نفسه القليل من عناء البحث كي يؤكد لنفسه بان الاعمى والاطرش ورثا عقلاً ملائماً للحواس الخمس التي ينعم بها كل جنس من البشر يرى ويسمع ، وان الروح تملأ ظلامها الساكن بأشعتها الخاصة والحانها المنسجمة .

القوة لا المؤاساة ، مطلبي بعد الايمان. والايمان الحي يضايق الى اقصى حدود المضايقة . لانه لا يمنحنا الخلاص من متاعب الحياة وشرورها، لكنه يعطي حياة اكثر وفراً رغماً عن جميع العقبات والشدائد التي تعترضها . واذا فهم الايمان على حقيقته يصبح حيوياً بعيداً عن الجمود . فالايمان الجامد يشبه العين التي لا تتطلع إلى اي شيء او تسعى بالبحث عن شيء . ولكن الايمان الدافق لا يعرف معنى الخوف ، ويرفض الاعتقاد بان الله غدر بمخلوقاته فسلم العالم الى قوى الظلام . كذلك فانه يرفض مقاضاة الانسان امام جنس من الاجناس البشرية ، او لون او ضمير سوى ما ينص عليه ناموس الحياة.ويرفض الاعتقاد ايضاً بان مجتمعاً يحل فيه الوئام محل الكراهية ، والتضامن محل القوى المسلحة ، بعيد عن التحقيق . ولا يعترف بوجود اليأس والقنوط والهزيمة ، اشارة للسير الى الامام.

وان اضعف مخلوق من البشر اذا كان مسلحاً بالايمان، اقوى بكثير من المصيبة نفسها ، لان الله يحتضنه ليحميه من العالم ويجعل روحه كاملة ونداً لمواجهة اي طارىء .

أتمنى أحياناً أن تضمحل الجدود الراسخة ، وأشعر حتماً برضة من شدة وطأتها . يذكرون ليلا ونهاراً ، بسيل جارف من الوسائل ، وركام عامر من التملق والمديح ، وبأنني لا استطيع أن أرى أو أن أسمع ، مع العلم أنني حسب المفهوم الازلي ، أسمع وأرى .

الروح كالبحر ، وأعظم من أية جزيرة أو قارة مع كل ما يكتنف مياهها من الحساسية . ولها – أي الروح – افق غير متناه من الخواطر والافكار ، تولد حقائق جديدة وطرق جديدة في الحياة متناسقة معها . واعتقادي الراسخ بأنني لست عمياء او طرشاء ، مماثل لشعوري بأنني في الجسد ولست منه .

كذلك أعلم أنني في الظاهر لست الا هيلين كللر « الصماء والعمياء » . ولكن ذلك ليس الا شخصية زائلة تعيش لسنوات قليلة وسط الظلمات بدون أن أكترث لها ، وأنا أمارس حقل اختصاصي شبه اداة ، وليس فيه أي شبه بروحي الحقيقية . واذا قدر للآخرين ان يستفيدوا منها ، وبواسطتها ، فان ذلك سيكون من دواعي سروري واغتباطي .

المضايقة ناجمة عن انهماكي الدائم في مشاكل الصم والعمي التي تحرمني من التطلع الى العالم الفسيح من الشبابيك المشرعة او الإصغاء إلى تعاقب الأصوات المتعددة .

اكنا مرضى او اصحـــاء ، عمياناً او مبصرين ، احراراً او عبيداً ، فنحن هنا لغرض ، وانّى كانت مراكزنا فنحن نسرّ الله بالاعمال المفيدة اكثر من تكرار الصلوات او الانزواء التقي . وتبقى الكنيسة او المعبد فارغاً الا اذا عبأه الخير ... ولن تجعله الجدران كبيراً او صغيراً بل يضخمه النور المنبعث عن النفوس الشجاعة. ولا يكون المذبح مقدساً الا اذا رمز الى المذابح المقامة في قلوبنا والتي تقدم عليهـــا الضحية الوحيدة المطلوبة منا ـــ الحب الذي هو اقوى من الكراهية والايمان الذي يغلب الشك .

كثيراً ما يقال إن الخدمة والنفع نهاية مآرب الحياة ، وهذا صحيح ، ولكن السعادة هي التي تبدع وتوحي بالنفع ، ولو ملكت العديد من المواهب والقدرة على الفهم ولو ظللت تمعن الفكر وتقدح زناده ليل نهار لتساعد على تقدم خير العالم فلن يفيدك كل هذا بشيء اذا لم تكن سعيداً ،

في هذه الأيام ، يشبه الايمان بأن الخير هو الاصل أو المبدأ السائد ، تجربة المرور فوق النار ... ومع هذا يصعب عليّ شخصياً التخلي عن مثل هذا الايمان :.. وأنا واثقة جداً ان اشد مخاوف المفكرين المحدثين واكثرها مرارة لم تواجه تماماً الخراب الذي ننساق اليه الآن . ولهذا أرى ان الايمان أصبح اكثر لزوماً ، علّه يصب الشفاء على القلق الذي يعمي الأبصار والفزع الذي يصم الآذان .

قيل ان السماء والارض سراب تراءى من صحارى يأس الانسان . فما أجمله من يأس إذا كان قد حقق فعلاً هذه المعجزة ! ولكن لكل من له ايمان عالمه الذي يراه حقيقياً مهما بدا للآخرين ؛ والسعادة التي تعني أصلاً التنفس الحر الطليق للروح ، تسهم في خلق ذلك السراب .

ومن بهجة صغار الحيوان لكونها حية ، ومن مرح الطفولة وهي تلهو ومن اندفاع الشباب الى المغامرة بكل شيء من أجل الحب ومن فرحة الظفر بعد طول العناء .. من كل هذه الامور يجمع الايمان ذخيرته ليواجه العاصفة !

كثيراً ما أعجب ، حين يكون الوداع ، حتّى ولو كان لزمن قصير ، مؤلماً !

أتصور أن شعور الفراق يشبه شعور الأسف عندما يبدأ حلم الحب السماوي الاول بالذبول ، أو هو يشبه شعور الاسى عند الام حينما تعود بها الذاكرة الى اللحظة المفرحة عندما ترى طفلها يخطو أولى خطواته او ينطق أولى كلماته ما أقل المسرات التي لا يعقبها شعور بالاسى ... ولكنه الاسى الذي يبقيها حلوة جميلة .

نهار مشرق بأشعة الشمس ... وفجأة من مكان ما ، وعلى غير انتظار يتهادى حجاب من الضباب يتلـــوه آخر وآخر الى أن يختفي عنا وجه الشمس ويظلم كل شيء أمام نواظرنا ... ولكننا لا نشك لحظـــة بأن الشمس ما زالت هناك ...

قال أحد الشعراء : « إن الحيــــاة حزمة ضباب بيننا وبين الشمس . »

وأنا أعتقد أن هذا القول صحيح ، وأرى اننا ، والروح جزء منا ، مخلدون . وان شمس الحب والسعادة خالـــدة أبدية ، ولكن الحياة باندفاعها وضجيجها وماديتهـا تقف بيننا وبين « الشمس » كحزمة من الضباب او سحابة عابرة تحجبها عنا ... الى حين .

الغد ! ما أعظم ما تحمله هذه الكلمة من معان وامكانيات مهما كان اليوم مخيباً للآمال ، قاتماً بالغيوم السود ، مليئاً بالذعر والمرض والموت ... فهناك دائماً الغد.. ووعده بأمور اطيب واحسن ... دعونا اذن نفكر بالموت على انه غد آخر ... مليء بآمال ووعود لا حد لها يعتزم الابقاء عليها .

في الظاهر ، لم يحدث اليوم شيء ذو بال ... ولكن ليس عندي انا يوم فارغ ممل ، ففي داخلي ذات تراقب وتمحص وتتفلسف باستمرار ... انا لا استطيع النظر من النافذة او مشاهدة تعابير الوجه او حتى سماع رنة صوت ومع هذا فما اغنى التجارب التي هي في متناول يدي !

فكل وقع قدم او لمسة يد او سرور عابر تسجل وتفحص وتبوب في عقلي ... فقط عندما اصف ، بكل ما استطيعه من وضوح ، اعظم ما اراه وما ألحظه في الانسان ، اشعر بالراحة والرضى ...

قديمـاً كانت الكوارث تعتبر عقاباً من عند الله ـ قضاء يجب احتماله بخنوع وتقوى ـ وكانت الفكرة الوحيدة السائدة من مساعدة ضحايا سوء الطالع تنحصر في حمايتهم وتركهم ليفكروا ويعيشوا بقدر ما يستطيعون اكتنازه من قناعة في وادي الظلال .

اما اليوم فنحن نعرف ان الحياة المنكوبة . . . بـدون آمال ، تضعف الروح ... تماماً كالجسد ، تضعف عضلاتـه ان هي اهملت ولم تستعمل ... فاذا امتنعنا عن الخروج ، بطريق ما ، عن نطاق تجاربنا الضيقة ، ولم نستعمل ذاكرتنا وتفهمنا ، وعطفنا ، فقدت هذه الصفات مزاياهـا وعدمت نشاطها ... ونحن لن نصل الى ذروة قوانا وامكانياتنا إلاّ بمقاومة الحدود الضيقة لهذه الدنيا ومحاربة عيوبها واغرائها.

لا يمكن ان ننسى أبداً لذة غمرتنا مرة ، فنحن نرى غروب الشمس ، او جبل يسبح في ضوء القمر ، او المحيط الرائع في هدوئه او ثورته ، فنتأثر ونحب جمالهـا ونحفظ روعة الرؤيا في قلوبنا ... فكل ما نحب بعمق يلتصق بنـا ويصبح جزءاً من ذواتنا .

وهكذا ... لا نفقد احباءنا عندما يموتون بل نشعر بهم يضحكون ويحبون ويعملون ويمرحون بجانبنا .

الحق ان الحياة اقوى من الموت والحب لا يفقد محبوبه ابداً .

الزمن بلا منازع ، يذيب معظم عناصر التجارب ويحولها الى تجريدات ذهنية . وكثير من التفصيلات الجافة تتمنع عن اية محاولة لاعادة تركيبها ، وليس ذلك لمجرد صعوبة في تقصي الاحاسيس او العواطف ، فان من الصعب ايضاً تحديد وجهات النظر او وصف تأثيرها على الآخرين فهي تظهر في ذوبانها كما في تبلورها بأشكال مختلفة بالنسبة للاشخاص المعنيين .

ويبدو لي ان من المستحيل تحليل الدوافع الخفية عند اولئك الاشخاص الذين أثروا في حياتنا ، وذلك لاننا عاجزين عن احياء عملية الخلق التي تفاعلت في نفوسهم مع نضارة الحالة التي ارتبطت بتلك العملية .

ان عملية التحليل تهدم العاطفة والاحساس كما تتهدم الزهرة بين يدي عالم النبات الذي يمزقها !

لا احد يدرك ، بل لا أحد يستطيع ان يدرك مرارة قيود الحرية وقسوتها كما أعرفها انا ، ولست مخدوعة بموقفي من هذه الناحية .

ان أكون لم اشعر قط بالحزن والكآبة ، ليس صحيحاً وليس صحيحاً ايضاً ، انني حزينة أو ثائرة . فقد عقدت العزم منذ أمد طويل على عدم الشكوى .

ان الذين يصابون بجروح مميتة ، عليهم أن يكافحوا كي يعيشوا بقية أيامهم بفرح وبهجة من اجل الآخرين . فما وُجد الدين إلا لمثل هذه الامور — لكي يحفظ قلوب البشر منيعة قوية لتكافح وتناضل الى النهاية بروح مرحة .

قد لا يكون هذا طموحاً جامحاً بيد انه أفضل من استسلام الانسان الى مشيئة القدر . وعلى المرء ، لكي يتغلب على القدر ، ولو لدرجة بسيطة ، ان يجدّ ويعمل ، وان يسعى الى اكتساب صداقة الغير ومودتهم . وان يؤمن ايماناً قوياً لا يتزعزع بمقاصد الله الخيّرة .

قليل من الناس هم قديسون أو عباقرة ، بيد ان هناك دائماً ذلك القـــدر الكافي من الأمل والرجاء في جميع الرجال ــ فكل احساس نقي يشعرون به دليل على حسن النيـة .

وكـل منظر جميل ترتاح اليه انظارهم ، وكل لحـن يصغون اليه ، وكل شيء تلمسه ايديهم النقية الطاهرة ، يثير الافكار والتأملات الحلوة العذبة ، التي لا تستطيع عوامل الهمّ والألم ، ان تحطمها أو ان تقضي عليها .

ان الفرح ، هو صوت الحب والايمان الذي سيعلن في النهاية كلمة الحياة الأبدية : « حسناً فعلتم » .

كلما تخبطت في ظلام الليـــل الحالك ، واعترضـتني الصعوبات ، أشعر بأصوات خافتة ، مشجعة ، آتيـة من عـــالم الروح : وأشعر باحساس طاهر يتدفق من ينابيع اللانهاية . انني أطرب للالحان الموسيقية التي ينسجم ايقاعها مع روح الله . ان العلاقة التي تربطني بعالم الفلك ، بنجومه واقماره ، وبجبال غير منظورة ، تجعلني أشعر بنيران الابدية تتأجج في نفسي . هنا وفي غمرة الهواء الذي اتنشقه كل يوم ، أحس بالامطار تهطل من السماء . انني أشعر بالعظمة التي تربط جميع الكائنات على الارض بجميـــع الكائنات السماوية . فبالرغم من الهدوء والظلام اللذين يكتنفانني ، أملك الضوء الذي سيتيح لي قوة النظر والبصيرة التي ستنير لي الطريق عندمـــا يطلق الموتى سراحي من القيود التي تربطني الى هذا العالم .

ليست الحواس خادعة فحسب بل ان هناك الكثير من الاصطلاحات اللغوية التي تشير الى أن بعض النـــاس ممن يملكون الحواس الخمس يعجزون أحياناً عن ابقاء تصرفاتهم واضحة جلية .

أفهم اننا نستمع الى الاراء ونرى الالحـــان ونتذوق الموسيقى ، وقد أُخبرت ان للاصوات ألوانــاً ، وان الكياسة التي كنت افترض انها مسألة تصور انيق ظهر انها قضية ذوق ، وأخذ الكلمة بمعناها الواسع يبدو ان الذوق أهم الحواس اطلاقاً ، فهو يتحكم بكافة عادات وتقاليـد الحياة ، صغيرها وكبيرها . ويظهر ان لغة الحواس مليئة بالمتناقضات فان اخواني الذين يتمتعون بخمسة أبواب لبيوتهم ليسوا بأكثر مني راحة بال ولا قرارة عين .

اعتقد ان بامكاننا الحياة على الارض حسب تعاليم المسيح وان السعادة الكبرى ستغمرنا عندما نطيع وصيته : أحبوا بعضكم بعضاً .

واعتقد ايضاً ان كل قضية انسانية هي قضية دينية وان أي خطأ اجتماعي هو خطأ اخلاقي .

واعتقد ان باستطاعتنا الحياة على الأرض تطبيقاً لإرادة الله وان كل انسان سيحب اخاه وسيعامله كما يشتهي هو ان يعامله الناس عندما تنفذ إرادة الرب على الارض كما هي منفذة في السماء .. لانني اؤمن أن مصلحة الفرد معلقة بمصلحة المجموعة .

واعتقد اننا منحنا الحياة لكي ننمو في الحب .. واؤمن ان الله موجود لي كوجود الشمس في لون ورائحة الزهور .

فهو الضوء في ظلمتي وهو الصوت في صحتي .

واعتقد ان شمس الحق لم تشرق على الانسان إلا بومضات قصيرة مكسورة .

واعتقد أيضاً ان الحب سيقيم في نهاية الأمر مملكة الله على الارض .

وانا واثقة من أن احجار الزاوية الاربعة في تلك المملكة ستكون : الحرية ، والصدق ، والاخاء ، والخدمة .

وانا لا اؤمن بأن شيئاً من الطيبة سيذهب سدى بل ان ان كل خير أراده الانسان وأمل به او حلم به سيعم

ويبقى الى الأبد .

أنا اؤمن بخلود الروح لانني أشعر بأشواق الخلود تعتمل في نفسي ، واؤمن أيضاً بان العالم الذي ستدخله بعد الموت يعتمد ويتوقف على دوافعنا وافكارنا وأعمالنا ... انني واثقة بانني سأتمتع في الحياة القادمة بكل الحواس التي حرمت منها في هذه الدار الفانية . وان بيتي هناك سيفيض بالجمال والألوان والموسيقى وهمسات الزهور كما ستحلو لي .

قد يكون التغيير ، بمثابة الهواء الجديد الذي يهب عبر الحياة ، ولكنه ليس بالقوة الدائمة .

فنحن بحاجة الى امور ثابتة ، دائمة ، تدخل الى نفوسنا الواجفة ، السلام ، بقدر ما تدخل من ازدهار : - جمال الأرض ، مواسم الزرع والحصاد ، ابتسامة المحبين ، سرور الشباب لكونهم احياء ، والزهو بجمال الصنعة ... لماذا ! لماذا ندع انفسنا تنسى هذه الكنوز الخالدة في عصر الطموح المهلك ، والسرعة الجنونية ، والبضائع المكدسة ... هذه الأمور وغيرها مما لا يترك لنا فرصة لأن نحيا ..؟

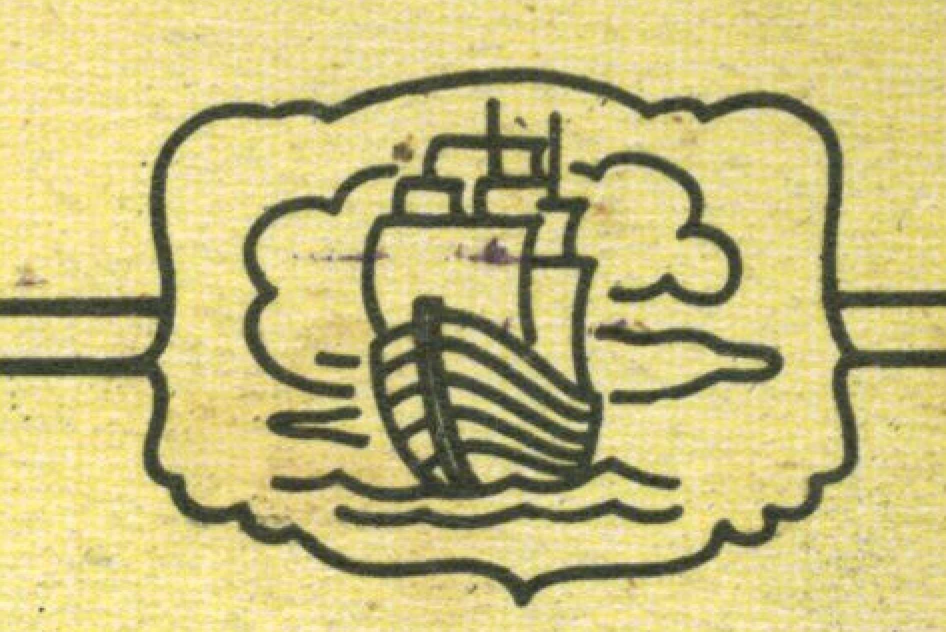
فاذا لم نتعلم القناعة بالقليل فلن يشبعنا الكثير ...

فمن البدايات البسيطة ينطلق الابداع والخلق دون كبح .

الوجوه التي أحببت هنا .

ما أضيق معنى حياتي هنا دون هذا الايمان : اذ بدونه أكون عموداً من الظلام في وسط الظلمة .

يشفق عليّ من يراقبني وهو في ذروة بهجته بحواسه . ولكن هذا يعود لانه لا يرى الغرفة الذهبية في حياتي حيث أسكن بفرح وسرور . فرغم ما بدا طريقي لعيونهم معتماً فالحقيقة انني أحمل ضوءاً سحرياً في قلبي . فالايمان ـ الضوء الروحي القوي ، ينير طريقي ، ورغم الشكوك المخيفة التي تتلاعب في الظلال أسير دون وجل نحو الغابة السحرية حيث الاوراق دائمة الخضرة وحيث تسكن السعادة وحيث يتساوى الموت مع الحياة في حضرة الرب .



جولات في الأدب العالمي

صدر منها :

١ـ الغرفة الصّفراء	تأليف	:	ماري رينهارت
٢ـ صراع في الأجواء	»	:	أرنست كان
٣ـ عاصمة الدّنيا	»	:	أرنست همنجواي
٤ـ الثورة العظمى	»	:	فرانك ثيسلويت
٥ـ القافلة التائهة	»	:	أمرسون هوغ
٦ـ لؤلؤة العالم	»	:	جون شتاينبك
٧ـ سيّدتي الحسناء	»	:	آلن جاي
٨ـ أزهار ارجوانية	»	:	كاترين آن
٩ـ سلاسل الرّعب	»	:	ف . ناروك
١٠ـ ملح الأرض	»	:	آرثر كو

الشركة العربيه المتحده للتوز

٨ قروش

Bibliotheca Alexandrina
09339463

الثمن ٧٥ ق.ل.س